المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
1401AH - 1981AC

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

علم النفس
في التراث الإسلامي

الجزء الثاني

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد
د. أسامة سعد أبو سريع
د. الحسين محمد عبد المنعم
د. جمعة سيد يوسف
د. شعبان جاب الله رضوان
د. طريف شوقي محمد
د. عبد اللطيف محمد خليفة
د. عبد المنعم شحاته محمود
د. محمد أحمد شلبي
د. محمد نجيب الصبوة
د. معتز سيد عبد الله

إشراف وتقديم
أ. د. محمد عثمان نجاتي
أ. د. عبد الحليم محمود السيد

مكتبة
مؤمن قريش

علم النفس

في التراث الإسلامي

الجزء الثاني

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد — د. طريف شوقي محمد

د. أسامة سعد أبو سريع — د. عبد اللطيف محمد خليفة

د. الحسين محمد عبد المنعم — د. عبد المنعم شحاته محمود

د. جمعة سيد يوسف — د. محمد أحمد شلبي

د. شعبان جاب الله رضوان — د. محمد نجيب الصبوة

د. معتز سيد عبد الله

إشراف وتقديم

أ. د. محمد عثمان نجاتي — أ. د. عبد الحليم محمود السيد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

علم النفس في التراث الإسلامي / إبراهيم شوقي عبد الحميد ... [وآخ] ؛ إشراف وتقديم / محمد عثمان نجاتي ، عبد الحليم محمود السيد . ط١ . - القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨م .
٣ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٦٥٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - علم النفس الإسلامي .

٢١٠,١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس محتويات الجزء الثاني

الموضوع[1] **الصفحة**

- ابن الهيثم (ت ٤٣٢هـ)
  - مقالة عن ثمرة الحكمة ٥٦٧
- الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ)
  - طيف الخيال ٥٧٤
- ابن بطلان (ت٤٤٤هـ)
  - رسائل ابن بطلان ٥٧٨
- الماوردي (ت٤٥٠هـ)
  - أدب الدنيا والدين.....٥٨٢
  - نصيحة الملوك.....٥٩١
- ابن بختشيوع (ت٤٥٣هـ)
  - الروضة الطبية.....٥٩٧
- ابن رضوان (ت٤٥٣هـ)
  - رسائل ابن رضوان.....٦٠٢
- ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)
  - طوق الحمامة.....٦٠٥
  - الأخلاق والسير في مداواة النفوس.....٦١٢
- الجرجاني، عبد القاهر (ت٤٧١هـ)
  - أسرار البلاغة في علم البيان.....٦١٧

(١) رتب الأسماء تبعًا لتاريخ الوفاة.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني.....٦٢٥

– الشيرازي (ت٤٧٦ هـ)

- الطب الروحاني.....٦٢٩

– الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ)

- منازل السائرين إلى الحق عز شأنه.....٦٣٧

– المبشر بن فاتك (ت٤٨٧هـ)

- مختار الحكم ومحاسن الكلم.....٦٤٧

– المرادي الحضرمي (ت٤٨٩هـ)

- السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة.....٦٥٧

– السراج (ت٥٠٠هـ)

- مصارع العشاق.....٦٦٤

– الراغب الأصبهاني (ت٥٠٢هـ)

- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين.....٦٦٨
- الذريعة إلى مكارم الشريعة.....٦٧٨

– الغزالي، أبو حامد (ت٥٠٥هـ)

- إحياء علوم الدين.....٦٨٦
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس.....٧٢٢
- المحبة والشوق والأنس والرضا.....٧٢٧
- فاتحة العلوم.....٧٣١
- الاقتصاد في الاعتقاد.....٧٣٦
- ميزان العمل.....٧٤٠
- المنقذ من الضلال.....٧٤٨
- التبر المسبوك.....٧٥٢
- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب.....٧٥٨
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى.....٧٦٤

- منهاج العابدين.....٧٧١
- بداية الهداية.....٧٨٠
- منهاج المتعلم.....٧٨٧
- مجموعة رسائل الغزالي (١).....٧٩٠
- مجموعة رسائل الغزالي (٢).....٧٩٧
- مجموعة رسائل الغزالي (٣).....٨٠٩
- مجموعة رسائل الغزالي (٤).....٨٢١
- مجموعة رسائل الغزالي (٥).....٨٢٨

- ابن باجة (ت٥٣٣هـ)

- رسائل جديدة.....٨٣٤

- الجيلاني (ت٥٦١هـ)

- الفتح الرباني والفيض الرحماني.....٨٣٨

- السمعاني (ت٥٦٢هـ)

- المذهب التربوي عند السمعاني.....٨٤٣

- السهروردي (ت٥٦٣هـ)

- آداب المريدين.....٨٥٢

- ابن ظفر الصقلي (ت٥٦٥هـ)

- السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات.....٨٦١

- ابن طفيل (ت٥٧١هـ)

- حي بن يقظان.....٨٦٥

- ابن رشد (ت٥٩٥هـ)

- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.....٨٧٢
- تلخيص كتاب النفس ٨٧٧

- ابن الصائغ، أبو بكر (ت٥٩٧هـ)

- رسالة الاتصال.....٨٨١

- ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)

- صيد الخاطر.....٨٨٢
- الطب الروحاني.....٩٠٣
- ذم الهوى.....٩٠٩
- الأذكياء.....٩١٧
- بر الوالدين.....٩٢٣
- روح الأرواح.....٩٢٨
- أخبار الظرفاء والمتماجنين.....٩٣١
- أخبار الحمقى والمغفلين.....٩٣٥
- تلبيس إبليس.....٩٤٠

- الرازي (ت٦٠٦هـ)

- لباب الإشارات.....٩٤٥
- الفراسة.....٩٤٩
- المطالب العالية من العلم الإلهي.....٩٥٤
- الطب الروحاني.....٩٧٩
- شرح الإشارات.....٩٨٦
- عجائب القرآن.....٩٩١

- ابن قدامة (ت٦٢٠هـ)

- كتاب (التوابين).....١٠٠١
- ذم الموسوسين.....١٠٠٥

***

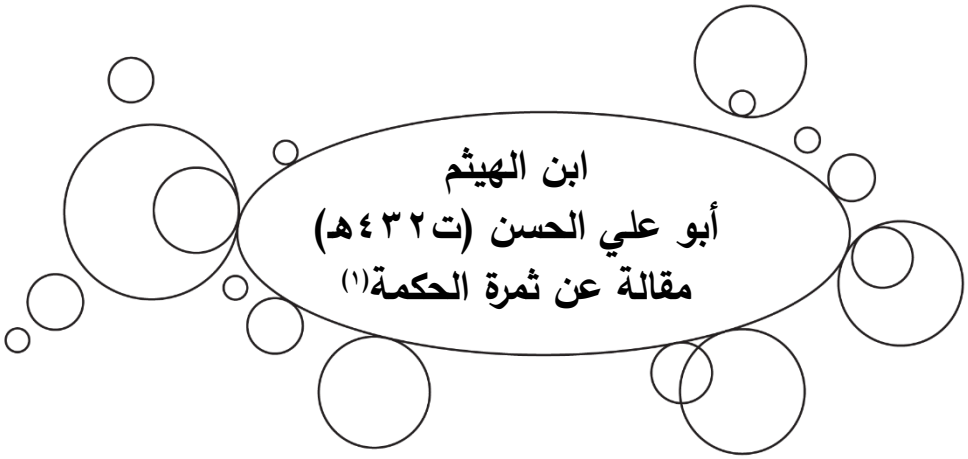

عرض: د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف[٢]:

تقع حياة ابن الهيثم بين حوالي عام (٣٥٤هـ، و٤٣٢هـ)، وهذه فترة ازدهار علم الكلام المعتزلي وبلوغه ذروة عالية في مؤلفات القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت٤١٥هـ، أو٤١٦هـ)، والمرحلة الأولى من ازدهار علم الكلام الأشعري على يد القاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ).

وكان ابن الهيثم معاصرًا لابن مسكويه (ت٤٢١هـ)، وابن سينا (ت٤٢٨هـ)، وأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت٤٤٠هـ)، لكنه كان في أول أمره بالبصرة، وأقام في الشام حينًا، ثم استقر في مصر على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت٤١١هـ)، وفيها توفي إلى رحمة الله. ولا يوجد بين أسماء مؤلفاته الكثيرة ما يدل على اهتمامه بمذاهب فلاسفة الإسلام المعاصرين له، ومن الواضح أنه وجه كل اهتمامه –رغم كل شروحه وتلخيصاته لمؤلفات اليونان – إلى علوم الرياضيات والفلك والهيئة، وفيها تجلى نبوغه.

لكن ابن الهيثم لم يكن منقطع الصلة بحياة الفكر الإسلامي في عصره من ناحية معينة، هي ناحية العقيدة ومنهج إثباتها، فرغم قوة الفكر الديني عند المتكلمين والفلاسفة، إلا أنه كان هناك اتجاهات مغايرة، عني باتخاذ موقف إزاء هذه

(١) تحقيق وتقديم محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، [د.ن]، (١٩٩١م)، (ص٣٧).

(٢) مصدر الترجمة: مقالة عن ثمرة الحكمة، تحقيق محمد بن عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، (١٩٩١م).

الاتجاهات، فألف في الرد على ابن الراوندي، وعلى الرازي (الطبيب محمد بن زكريا) وآرائه في العلم الإلهي وفي النبوات، كما رد على المعتزلة في بعض آرائهم.

يذكر من بين مصنفات ابن الهيثم "مقالة في حساب الخطأين"، وفي الرسالة التي نقدمها ذكر هذا النوع من الحساب.

عرض المقالة:

تقع المقالة في ٣٧ صفحة من القطع الكبير، وبدأ الحسن بن الهيثم مقالته بقوله: "الحكمة علم كل حق، وعمل كل نافع، وعمل النافع عسير جدًا إلا لمن لطف حسه، واعتدلت قوة النفس الناطقة بحركتها فيه؛ وذلك أن بدل الإنسان آلة لثلاث قوى نفسانية:

قوى النفس:

إحداها: القوة المنسوبة إلى الذات، وهي القوة التي يشترك فيها جنس النامي، وهو نوعان: النبات والحيوان، وبها تكون الشهوة في الحيوان، فهي تسمى القوة الشهوانية، وترتبط هذه القوة بمفهوم الدوافع البيولوجية (ص١٧).

والأخرى: هي القوة المنسوبة إلى الظفر والغلبة، وتلك القوة هي التي ينفرد بها جنس الحيوان، وهو فصلان: غير ناطق، وناطق، وتسمى القوى الغضبية، وترتبط هذه القوة بمفهوم الانفعالات والدوافع، وبخاصة العدوان والغلبة (ص١٧).

والثالثة: (القوة) المنسوبة إلى السعادة، وهي القوة التي يحس بها الناطق من الحيوان، وتسمى القوة الناطقة، وترتبط هذه القوة بمفهوم التفكير أو العمليات العقلية (ص١٧).

وكل واحد من هذه القوى لها في الحركة وسط وطرفان؛ لأن الشوق إنما هو حركة إلى المتشوق إليه، كحركة الحديد إلى الهرقلي، والهرقلي هو الحجر الذي تسميه العامة المغناطيس.

وكل واحد من القوى الثلاث المقدم ذكرها؛ هي تستعمل بدن الإنسان بإحدى الحركات الثلاث: إما بالوسط، وهو الاعتدال، وإما بأحد الطرفين وهو الإفراط والضعف.

فالشهوانية: اعتدال حركتها في الإنسان يسمى عفة، وإفراط حركتها فيه يسمى

شرهًا، وضعفها يسمى كلال الشهوة.

والغضبية: اعتدال حركتها فيه يسمى شجاعة، وإفراطها يسمى هوجًا، وضعفها حمقًا (ص١٧).

أصول الحكمة وقواعدها:

وللحكمة أصول موضوعة وقواعد مقررة؛ يحتاج الطالب للحكمة إلى النظر فيها، والارتباط بها، وأخذ نفسه بأن يتصورها، وإقامتها في فكره، والصبر على ما اعتاص منها في فهمه حتى يظهر، بمواصلة النظر في ذلك والتفهم له، ما خفي عليه بأمر، ومتى استعمل هذا ولم ينفر عنه عند خفائه كان واصلًا إليه لا محالة؛ وذلك حتى تظهر ثمرة الحكمة على أصولها، ويتمكن الجميع، وبخاصة المبتدئون من الاستفادة بملابستها (ص١٨).

النفس الناطقة وقواها:

وذلك أن الإنسان هو نوع من أنواع الحيوان الأرضي المخصوص بالنفس الناطقة، والنفس الناطقة هي ثلاث قوى: تخيل، وذكر، وفكر. فأما التخيل فهو: بقية الحس، وذلك أن تصور الإنسان ما أحسه أو ما أحس مثله من غير حضور ذلك المحسوس كالذي يشاهد مصرًا من الأمصار، وهذه القوى من قوى النفس الناطقة يقال لها: القوة المصورة، وبها تستعمل النفس الناطقة بدن الإنسان في حال نومه.

نظرية الأحلام:

فتصور له الأشياء بحسب ما عليه مزاج ذلك البدن من الاعتدال المخصوص به، والخروج عن ذلك الاعتدال إلى أحد طرفيه، أريد: أن القوة المصورة إذا صادفت مزاج البدن على حال الاعتدال المخصوص به أمكنها أن تصور له الأشياء الماضية والآتية على ما هي عليه فيثبتها؛ ولأن الاعتدال في الأمزجة يكون على رتب متفاضلة، فكلما كان الاعتدال أفضل كان فعل القوة المصورة أبين وأصح وأوضح حتى ينتهي فعلها إلى الحال التي تسميها العوام: الوحي.

فإذا صادفت مزاج البدن زائلًا إلى أحد الطرفين كان من الممكن لها فيه ثلاثة أفعال: أحدها: فيما هو أقربها إلى الاعتدال، وهو أن يرى من له تصور الأشياء الماضية والآتية، كالذي يرى في منامه أنه يطير، فإن ذلك رمز له بالسفر.

والآخر: فيما هو أبعد من ذلك من الاعتدال، وهو أن تصور له الأشياء الماضية

والآتية بأضدادها، كالذي يرى في منامه أنه في أمر يحزنه، فيأتيه ما يفرحه.

والثالث: فيما هو بعيد في الغاية عن الاعتدال، وهو على رتب مختلفة تكون أفعال القوة المصورة في ذلك مختلفة؛ كتصورها الأشياء المفزعة، والأشياء الملهية، والأشياء الممتنعة، كالذي يرى نفسه كأنه قد مات أو قتل أو صار بهيمة، وما شاكل ذلك.

والذكر: هو إحضار ما تقدم وجوده في النفس.

والفكر: هو سلوك النفس الناطقة في إدراك حقائق الموجودات، وهو الذي يختص باسم العقل.

والإدراك: هو تصور نفس المدرِك لصورة المدرَك، ويرتبط الجزء السابق بمجموعة المفاهيم السيكولوجية هي: تفسير الأحلام (ص١٨، ١٩)، والاعتدال (ص١٩)، والتخيل (ص١٨)، والتذكر (ص١٩)، والتفكير (ص١٩)، والإدراك (ص١٩).

العقل وقواه:

وللعقل ست قوى ذاتية، وثلاث قوى عرضية.

فقوى العقل الذاتية: هي التصور العقلي، والحفظ، والذهن، والذكاء، والرأي، واليقين. فالتصور العقلي: هو حضور صورة الموجودات في النفس ملخصة، والحكم على كل واحد منها بما هو كذلك.

والحفظ: هو ثبات صورة المعقولات والمحسوسات في النفس.

والذهن: هو جودة التمييز بين الأشياء.

والذكر: هو سرعة المعرفة والعلم بما يلابسه الفكر.

وذلك أن المعرفة: هي تصورٌ ما حسيٌّ، والعلم هو تصورٌ ما عقليٌّ، والمعرفة هي إدراك صورة الأشياء بما تتميز به عن غيرها، والعلم هو إدراك حقائق الأشياء.

والرأي: هو نهاية الفكر.

واليقين: هو مطابقة العقل معقوله.

أما قوى العقل العرضية، فهي الظن والتوهم والشك، فأما الظن فهو تحاذي الرأيين.

التوهم: هو موافقة الظن من غير إثبات الحكم.

والشك: هو تردد النفس بين الإثبات والنفي.

وهذه الثلاث إنما تكون للعقل بتوسط ضعفه عن الوقوف على حقيقة مطلوبه. ويرتبط الجزء السابق بمجموعة مهمة من المفاهيم السيكولوجية التي قدم المؤلف تعريفات تقترب إلى حد كبير من التعريفات الحديثة (ص١٩).

والعقل هو الذي من شأنه الجزء منه أن يصير كُلًّا، أريد: أن من شأن عقل شخص واحد من أشخاص الناس، الذي هو جزء العقل الكلي، أن يدرك جميع المعقولات إذا سلم من الموانع العرضية.

الإنسان والخير والسعادة:

والإنسان بقوة العقل معرَّض مهيأ لطلب السعادة، وهي إدراك الخير على الحقيقة، والخير على الحقيقة هو ما يؤثر لذاته؛ لأن الخير على المجاز هو ما يؤثر لأجل ما يؤثر لذاته.

والشيء المأثور لذاته هو الذي لا يكره في حال من الأحوال؛ فإذن السعادة: هي إدراك الذي لا يكره في حال من الأحوال.

والمأثور الذي لا يكره في حال من الأحوال هو الراحة من غير ألم؛ وذلك أن الإنسان له راحتان: راحة من ألم، وراحة من غير ألم (ص١٩).

نظرية اللذة والألم:

فالراحة من الألم: هي التي يشترك فيها الحيوان الأرضي الناطق، وغير الناطق؛ مثل الشبع؛ فإنه راحة من ألم الجوع، والرِّي؛ فإنه راحة من ألم العطش، وكذلك سائر ما يفيده الإنسان بالقوتين الشهوانية والغضبية إنما هو لذيذ بالإضافة إلى المؤلم، كالفرح: إنما هو لذيذ بالإضافة إلى الحزن، والأمن: إنما هو لذيذ بالإضافة إلى الخوف، والحزم والخوف مؤلمان.

وذلك أن الراحة إنما تؤثر مع وجود ضدها الذي هو الألم، فإذا عدم الألم فليست مما يؤثر، ولكن هي مكروهة، فإن الإنسان إنما يؤثر الطعام مع وجود الجوع، فأما مع عدمه فهو مكروه لا محالة، لكن يكره أن يزداد طعامًا مع وجود الشبع، كذلك سائر ما ذكـــرناه. ويرتبط الجزء الســـابق بمفاهيم اللذة والألم والانفعـــالات؛ (مثل: الفرح والحزن والخوف (ص٢٠).

الراحة الإنسانية:

والراحة من غير ألم هي ما يختص به الحيوان الناطق فقط، وهو العلم بكل حق بعد الجهل به، والعمل لكل نافع بعد الإلغاء له، أي بعد اعتقاده أنه لغو؛ لأن العلم والعمل إنما هما علم وعمل بالإضافة إلى الجهل والإلغاء، والجهل والإلغاء ليسا بمؤلمين.

والعلم بكل حق، والعمل لكل نافع هما جزآ الحكمة، فإذًا إدراك الحكمة هو الراحة من غير ألم؛ وذلك أن هذه الراحة هي التي تؤثر مع وجود ضدها وعدمه جميعًا، فهي لا تكره في حال من الأحوال؛ فإن الإنسان الجاهل يؤثر أن يعلم، والعالم يؤثر أن يزداد علمًا، فلذلك لزم أن يكون الإنسان فقط مهيًّا لطلب المأثور الذي لا يكره في حال من الأحوال، وهو العلم بكل حق، والعمل لكل نافع.

فواجب أن يكون إدراك هذا هو السعادة؛ لأن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان الأرضي بالعقل، فالعقل لا بد أن يتميز عن سائر غيره من الحيوان بما لا يشاركه سائر الحيوان الأرضي فيه، وما لا يشارك الإنسان غيره من الحيوان الأرضي فيه هو إدراك الحكمة. ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الراحة النفسية أو الاستقرار الانفعالي، وكذلك مفهوم القيم العلمية (ص٢٠-٢١).

الإنسان الحقيقي:

وقد لزم من هذا الشرح أن يكون الإنسان الجاهل بعلم كل حق، الملغي لعلم كل نافع إنما هو إنسان بالقوة، أريد: أنه يمكن أن يكون إنسانًا، فإذن الإنسان الذي ليس بحكيم، هو إنسان ناقص؛ لأنه غير مميز من الحيوان الذي ليس بناطق بما أفرده به العقل.

والإنسان الحكيم هو الإنسان بالفعل، أريد به: الإنسان التام؛ لأنه تميز عن الحيوان الذي ليس هو بناطق بما أفرده من العقل (ص٢١).

أقسام الفلسفة وفوائدها:

الحكمة جزآن مركبان هما علم كل حق، وعمل كل نافع، فجزء العلم منها ينقسم ثلاثة أقسام: رياضي، وطبيعي، وإلهي، بينما ينقسم جزء العمل إلى قسمين: أحدهما: حفظ الصحة، والآخر: حيلة البُرء (ص٢١).

الإنسان التام بالسعادة مع الحكمة:

وهنا يوضح المؤلف أن الإنسان يتم معنى الإنسانية فيه باستكماله إنسانًا، وهو أن يدرك ما إليه تشوق النفس الناطقة، وهو السعادة التي ذكرنا أنها الراحة من غير ألم، وهذا إنما هو الحكمة، يكون ثمرة ذلك له: أن يعلم حقائق الموجودات ومبادئها وعللها وأسبابها، وتشبه من أفعاله بالله تعالى ذكره، وهو استعمال فعل العدل الذي هو الخير المحض؛ ولذلك حُدَّت الحكمة فقيل: الحكمة هي التشبه بالله (تعالى ذكره) في أفعاله بمبلغ طاقة الإنسان، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الانفعالات، وبخاصة السعادة (ص٢١).

فوائد الحكمة وفضائلها:

يستفيد بالحكمة معنيين: أحدهما في ذاته، وهو الفضل، والآخر فيما يعانيه، وهو العدل، وفضائل الحكمة ثلاث: **نظرية:** وهي استعمال البرهان في إدراك حقائق الموجودات، و**خلقية:** وهي تهذيب الأخلاق، واستعمال التلطف والتأني في الحكم في جميع الأمور، و**سياسية:** وهي تهذيب أمور العوام وضبطهم عن فعل القبيح، وكفهم عن التغالب، وقمعهم عن التجاهل بأبلغ صنع يؤدي إلى إصلاحهم، وردع قويهم عن ضعيفهم، والإنصاف لمظلومهم من ظالمهم، وما شاكل ذلك.

المنهج للوصول إلى الحكمة:

والسلوك إلى إدراك الحكمة، وهي علم الحقائق، وعمل النافع، طريق شرعها الحكماء وأوضحوها وشيدوا أعلامها، وأصول ومبادئ رتبوها وأحكموا ترتيبها ترتيبًا يتلو بعضها بعضًا، لا يمكن الوقوف على الثاني منها حتى يوقف على الأول، وجعلوا مبدأها والمدخل إليها صناعتين: صناعة الهندسة، والأخرى صناعة المنطق. والهندسة: هي صناعة يعلم بها خواص المقادير علمًا برهانيًا، والمنطق: هو صناعة يميز بها بين الصدق والكذب في الأقاويل، والحق، والباطل في الاعتقادات، والخير والشر في الأفعال، وقد قدم المؤلف على مدار بقية الرسالة تفصيلًا شاملًا لكل صناعة من هاتين الصناعتين (ص٢٢-٣٤).

أوجه الاستفادة من المقالة في علم النفس:

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجال علم النفس العام.

***

عرض: د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف:

هو أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى، الملقب بالمرتضى. ولد ببغداد (٣٥٥هـ)، وبدأ حياته الدراسة بحفظ القرآن على يدي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي، ثم درس على أبي عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمامي، الملقب بالشيخ المفيد، وبابن المعلم بمسجده بالكرخ.

وكان المفيد المتوفى سنة (٤١٣هـ) فقيه الشيعة الإمامية في عصره، متبحرًا في كثير من العلوم، مبجلًا محترمًا، صاحب منزلة رفيعة عند الملوك، والأمراء البويهيين، ومن تلاميذه: الرضيُّ، والمرتضى، وأبو جعفر الطوسي.

وتلقى المرتضى الاعتزال على يد قاضي القضاة، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، أحد شيوخ المعتزلة في عصره، ومؤلف كتاب "المغني"، الذي عرض فيه لتاريخ أبي بكر وعمر وعثمان، وقد ألف كتابًا أسماه "الشافي" ردًا على كتاب "المغني"، وقد تضمن هذا الكتاب، فيما يروى، مطاعن فاحشة في الخلفاء الثلاثة بلغت حد إخراجهم من زمرة المسلمين.

أما النحو وعلوم اللغة فقد تلقاها عن أبي علي الفـارسي المتوفى سنة (٣٧٧هـ)، وابن

(١) تحقيق محمد سيد كيلاني، (ط١)، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، (١٩٥٥م)، (ص١٢٣).

السيرافي المتوفى سنة (٣٨٥هـ)، وابن جني المتوفى سنة (٣٩٣هـ)، وعلي بن عيسى الربعي المتوفى سنة (٤٢٠هـ).

وكان المرتضى على جانب من الثراء، مكن له من التفرغ للعلم، وقد آلت إليه نقابة الطالبيين بعد وفاة أخيه الرضي، وقد ذكر ياقوت عن أبي جعفر الطوسي أنه قال: توحد المرتضى في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدم في العلوم مثل علم الكلام، والفقه وأصول الفقه، والأدب، والنحو، والشعر، ومعاني الشعر، واللغة. وله ديوان شعر يزيد عن عشرة آلاف بيت.

ومن مؤلفات المرتضى التي وصلت إلينا: الأمالي وهو أشهر كتبه، والشهاب في الشيب والشباب (طبع في الآستانة سنة (١٣٠٢هـ)، والكتاب الذي بين أيدينا. استمدت هذه الترجمة مما ورد في مقدمة محقق الكتاب الحالي).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في ١٢٣ صفحة من القطع الصغير، ويحتوي على إهداء الكتاب للدكتور طه حسين من المحقق، ومقدمة المحقق، ومقدمة المؤلف، ثم ما جاء في طيف الخيال في شعر أبي تمام والبحتري، وما أخرجه المؤلف من شعر أخيه الشريف الرضي في طيف الخيال، وما أخرجه المؤلف من شعره في طيف الخيال. وخاتمة، ثم فهرس الموضوعات، وفهرس الأعلام، وفهرس الأماكن، وفهرس القوافي.

وكتاب طيف الخيال، منشور عن نسخة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية، مأخوذة عن نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال، وقد سجلته دار الكتب في فهارسها على أنه للشريف الرضي؛ غير أن المحقق يجزم بأنه للشريف المرتضى.

موضوع هذا الكتاب هو "طيف الخيال" الذي أكثر الشعراء من ذكره في قصائدهم الغزلية، وهو موضوع طريف حقًا، وقد كان الشاعر العاشق الولهان، الذي حالت الظروف بينه وبين محبوبته، يظل مشغولًا بهذه المحبوبة، دائم التفكير فيها؛ فلذلك كان يراها في النوم، وينال منها ما يشاء، ثم يتحدث عن ذلك في شعره، فالحديث عن طيف الخيال، هو حديث عن أحلام كل شاعر بمحبوبته. وقد كثر هذا في الشعر العربي، حتى صار موضوعًا يحتاج إلى دراسة مستقصية منظمة، ولعل المرتضى أول من تناول هذا الموضوع في كتاب مستقل، ولكنه لم يستقص كل ما ورد في الشعر عن طيف الخيال، بل قصر كلامه على شعر أبي تمام، والبحتري، وشعره، وشعر أخيه

الرضي، وإن كان قد أشار إلى أبيات قليلة لبعض شعراء آخرين؛ مثل قيس بن الخطيم، والنمر بن تولب، ووازن بين معاني هذه الأبيات وبين ما ورد عند البحتري وأبي تمام.

ويبدو في ذلك كله محللًا ومعقبًا، مستعينًا على توضيح ما يريد بالأمثلة، ولا يقتصر تحليله على المعاني والصور، وإنما يمتد للعبرة والكلمة، أو بالأحرى للجملة اللغوية.

ويلفت المرتضي النظر إلى مبررات إخراجه لهذا الكتاب، ويرى أن من فوائده أن "الطيف" قد يوصف بالمدح تارة، وبالذم تارة أخرى، ولمدحه وجوه متشعبة، فمما يمدح به: أنه يعلل المشتاق المغرم، ويمسك رمق المعنَّى المسقَم، ويكون الاستمتاع به، والانتفاع به، وهو زور وباطل، كالانتفاع لو كان حقًّا يقينيًّا.

ومما يمدح به، أنه زيارة من غير وعد يخشى مطله، ويخاف ليُّه وفوتُه، واللذة التي لم تحتسب، ولم ترتقب، يتضاعف بها الالتذاذ، والاستمتاع، وأنه وَصْل من قاطع، وزيارة من هاجر، وعطاء من مانع، وبذل من ضنين، وجود من بخيل، وللشيء بعد ضده من النفوس موقع معروف غير مجهول (ص١٤-١٥).

ومن مليح مدحه وغريبه أنه لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما، ولا يخشى منع منهما، ولا اطلاع عليهما، والتهمة بهما زائلة، والريبة عنهما عادلة، وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما تحريم، ولا يقترب منهما تأثيم، ولا عيب فيهما ولا عار (ص١٥).

ويوضح الشريف المرتضى أنه سابق لغيره في تقديم هذه المعاني لـ"طيف الخيال"؛ حيث لم يسبقه أحد إلى ذلك، سواء في لغة الشعراء أو في لغة النثر، ثم يفسر بعد ذلك سبب تعجب الشعراء كثيرًا من زيارة الطيف على بعدِ الدار، وشَحْطِ المزار، ووعرة الطرق، واشتباه السبل، واهتدائه إلى المضاجع من غير هاد يرشده، وعاضد يعضده، وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافر ولا خف في أقرب مدة وأسرع زمان!؟ والسبب -كما يراه الشريف المرتضى- لأن الشعراء فرضوا أن زيارة الطيف حقيقة، وأنها في النوم كاليقظة.

أما ذم الطيف، فإنه قد يذم بأنه باطل وغرور، ومحال وزور، ولا انتفاع بما لا أصل له، وإنما هو كالسراب اللامع، وكل تخيل فاسد. وربما ذم بأنه سريع الزوال، وشيك الانتقال، وبأنه يهيج الشوق الساكن، ويضرم الوجد الخامد، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهيًا وساهيًا.

وهذه المعاني في مدح وذم الخيال قد تتشعب، وتتركب وتمتزج، فيتولد بينها من المعـــاني ما لا ينحصر، ولا يمكن خطه، بحسب قوة طبـــاع الشاعر، وصحة قريحته، وصفاء ذهنه.

ومن خلال استعراض الشريف المرتضى لأبيات الشعر وتحليلها، يرد على الآمدي عند تعرض الأخير للنفس، ويرى أنها في اللغة العربية عبارة عن أشياء كثيرة منها الدم، وسميت النفساء بهذا الاسم لأجل الدم، ويعبر بالنفس عن الذات، ويقال: فعلت ذلك بنفسي، وجاء زيد نفسه، ونفسي تتوق إلى كذا وكذا، أي أنا تائق إليه. ثم ينتقد أيضًا قول الفلاسفة بأن النفس جوهر بسيط ونسبة الأفعال إليها. ويبين أن الفاعل المميز الحي الناطق هو الإنسان الذي هو هذا الشخص المشاهد، دون جزء فيه أو جوهر بسيط يتعلق به (ص٣٨، ٣٩).

ولن نناقش بالطبع آراءه في النفس، وإنما ما يلفت النظر هنا أنه كان ذا رأي في النفس وأحوالها، وما يدل على أخذه ذلك مأخذ الجد التصدي للفلاسفة محاولًا تفنيد أقوالهم فيها.

ورغم أن موضوع الكتاب يقتصر على تحليل لأبيات شعرية لمؤلفين عدة، لاستخراج ما يتعلق بطيف الخيال ومعانيه وما قيل فيه؛ فإن الفائدة التي يمكن تحصيلها هنا بالنسبة لعلم النفس، هي فائدة غير مباشرة، فقد أصبح لعلماء النفس في الوقت الحاضر اهتمام مباشر بدراسة الخيال دراسات علمية تجريبية، بل إن هناك كتبًا كاملة خصصت لمناقشة هذا الموضوع سواء في اللغة العربية (وهي قليلة إلى حد ما)، أو في بعض اللغات الأجنبية، هذا مع تحفظ نذكره هنا: وهو أن معنى الخيال يدرس في إطار دراسات الإبداع، وكيف تؤدي عمليات التخيل إلى إنتاجات إبداعية، وتعرف الصور الخيالية بأنها النشاط الخاص بالتصور التخطيطي الداخلي للأشياء، وكذلك عملية تحويل هذه التصورات الداخلية وإنتاجها، وللصور العقلية ارتباط بالمخ خاصة نشاط النصف الأيمن من المخ.

وبالتالي فإن هذا الكتاب يكشف عن اهتمام مبكر بالخيال، وإن لم يكن هذا الاهتمام اهتمامًا علميًا كما هو في الوقت الراهن.

***

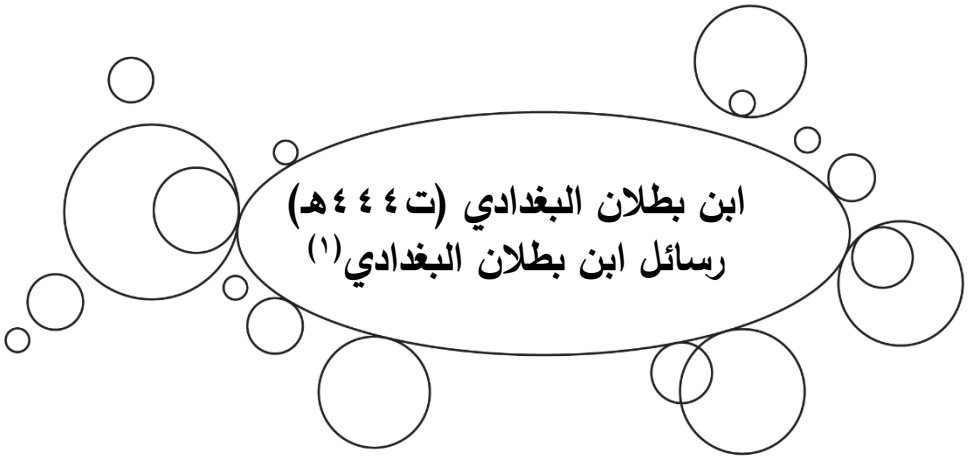

عرض: د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف:

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصراني من أهل بغداد. وكان قد اشتغل على أبي الفرج عبد الله بن الطيب، وتتلمذ له، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها. ولازم أيضًا أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الطبيب، واشتغل عليه، وانتفع به في صناعة الطب، وفي مزاولة أعمالها. وكان ابن بطلان معاصرًا لعلي بن رضوان الطبيب المصري، وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة، والكتب البديعة الغريبة، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابًا ولا يبتدع رأيًا إلا ويرد الآخر عليه، ويسفه رأيه فيه.

وقد زار ابن بطلان مصر لمشاهدة علي بن رضوان؛ والاجتماع به، وقد مكث في مصر ثلاث سنين، وكان ابن بطلان أعذب ألفاظًا، وأكثر ظرفًا، وأميز في الأدب، وما يتعلق به. وكان ابن رضوان أطلب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، وقد سافر ابن بطلان من مصر مغضبًا على ابن رضوان، وورد أنطاكية. (وفي رواية أخرى ذهب إلى القسطنطينية، وأقام سنة وعرضت في زمنه أوباء كثيرة). ونزل بعض أديرة أنطاكية، وترهب وانقطع إلى العبادة شهورًا إلى أن توفي بها سنة أربع وأربعين وأربعمئة.

---

(١) القاهرة: الجامعة المصرية، كلية الآداب، [د.ت]، (ص٩١)، سلسلة كلية الآداب، المؤلف رقم (١٣)، نسخة مصورة، رسائل ابن بطلان من مجموعة رسائل ابن بطلان وابن رضوان؛ تقديم: يوسف شخت.

ولابن بطلان من الكتب: كُناس الأديرة والرهبان، وشراء العبيد وتقليب المماليك والجواري، وتقويم الصحة، ومقالة في شرب الدواء المسهل، ومقالة إلى علي بن رضوان، وكتاب دعوة الأطباء، ووقعة الأطباء، ودعوة القسوس، ومقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة.

(هذه الترجمة مما ورد في مقدمة المحققين، نقلاها عن تاريخ الحكماء لابن القفطي، وعن كتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة).

ولابن بطلان في هذه الرسائل الخمس، رسالتان: الأولى في أن الفرُّوج أحر من الفرخ. (ولا نجد لها فائدة مباشرة بما نبغيه، وبالتالي سنتجاوزها، ونركز على رسالته الثانية).

نص الرسائل:

هذه المجموعة من الرسائل عبارة عن خمس رسائل: اثنتان منها لابن بطلان، وثلاثٌ لابن رضوان.

وتقع هذه المجموعة كلها في حوالي ٤٤ صفحة، طبعت معًا، والرسالة الأولى لابن بطلان في أن الفرُّوج أحر من الفرخ. (وليس لها فائدة مباشرة بما نبغيه هنا، وبالتالي سنتجاوزها)، والثانية هي رسالة في مناقضات علي بن رضوان، وأسماها المقالة المصرية، وسوف نعرضها فيما يلي:

وقد سميت هذه الرسالة بهذا الاسم؛ لأن صاحبها صنفها بالفسطاط في سنة إحدى وأربعين أربعمئة، أودع فيها مسائل ومحاورات هي أجوبة عما فعله ابن رضوان في رسالته التي ناقضه بها.

ويستهل مقالته هذه ببيان سبب وضعها فيقول: (الانتساب إلى الصنائع والاشتراك في البضائع مُرُوَّات وذمم، وحرمات وعصم، أدنى حقوقها بذل الإنصاف، وأحد فروضها اجتناب الحيف والإشراف، ويتصل بي عن مولاي الشيخ الفضال (أدام الله توفيقه، وأوضح إلى الحق طريقه)؛ بلاغات إذا قايستها بما ألفته من حدة طباعه، كدت أصدق بها، وإن عزوتها إلى ما خصه الله به من العلم قطعت بكذبها). وهذه المقالة تضم سبعة فصول:

الفصل الأول: في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل وأسهل من المتعلم من الصحف إذا ما كان قبولهما واحدًا؛ وعلة ذلك أن وصول المعاني يجري من النسيب إلى النسيب والنسيب الناطق، وهو المتعلم والمعلم، وغير النسيب جماد، وهو

الكتاب، وبعد الجماد من الناطق مطيل لطريق الفهم، وقرب الناطق من الناطق مسهل للفهم، فالفهم من المعلم أسهل (ص٥٠). كذلك فإن المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من اللفظ نقله إلى لفظ آخر، والكتاب لا ينقل من لفظ إلى غيره (ص٥٠).

من علل ذلك أيضًا أن النفس العالمة علامة بالفعل، وصدور الفعل عنها، يقال له: تعليم، والنفس المتعلمة علامة بالقوة وقبول التعليم فيها يقال له: تعلم (ص٥٠-٥١). والعلم موضوعه اللفظ، واللفظ على ثلاثة ضروب: قريب من العقل: وهو الذي صاغه العقل مثالًا لما عنده من المعاني، ومتوسط: وهو المتلفظ به بالصوت، وهو مثال لما صاغه العقل، وبعيد: وهو المثبت في الكتب (ص٥١). ومن العلل أيضًا أن قراءة المتعلم الكتاب على المعلم يوصل إليه العلم من حاسة السمع بلفظ المعلم، ومن حاسة البصر من خط الكتاب. (ولعل ابن بطلان في حديثه السابق قد مس بعض موضوعات علم النفس مسًّا مباشرًا أولها ما ينطوي تحت ما يسمى بسيكولوجية اللغة Psycholinguistics سواء من حيث فهم اللغة أو إنتاجها، وكذلك موضوع التخاطب، خاصة التخاطب اللفظي Verbal Communication، ويدخل ضمن اهتمامات علم النفس الاجتماعي، ويقترب كذلك من موضوع التعلم Learning، وهو أحد الموضوعات الرئيسية الواسعة في علم النفس الحديث، والتي تدرس مستقلة، وفيها نظريات كثيرة، وأساليب متعددة، كما تناول أيضًا موضوع العلاقة بين الفكر (العقل وما به من معان) وبين اللغة، وهي قضية قديمة حديثة ما تزال تشغل بال علماء النفس اللغويين. وأخيرًا يلفت النظر إلى موضوع الإدراك السمعي Auditory Perception، والإدراك البصري Visual Perception، والتآزر بينهما، ودورهما في عملية التعليم (ص٤٨-٥٣).

وبعد ذلك يعبُر ابن بطلان (أو الناقل عنه) الفصلين الثاني والثالث، ثم يحدثنا في الفصل الرابع في أن من عادات الفضلاء إذا قرؤوا كتابًا من كتب القدماء أن لا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة، ويستدل على التأني في الطلب، وعدم التسرع برصد أرسطو للقوس الكائن عن القمر أكثر عمره، وجالينوس واظب على طلب السكون الذي بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه، ثم يحاول تبرئة نفسه مما نسب إليه بسبب بعض ما اقترحه من علاجات لبعض الأمراض سيرًا على الطريقة الأبيقراطية (كما سماها)، وأن هذه الأدوية إن كانت تصلح في بغداد فإنها لا تصلح في مصر لاختلاف الجو (ص٥٣-٥٤)؛ ولذلك يعرض ابن بطلان ليصف بغداد وصفًا

دقيقًا، كيف أنها تختلف عن مصر، وأن أهلها يختلفون كذلك عن أهل مصر.

والفصل الخامس: في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة، ويلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية، والمسألة الأولى، وهي تتعلق بالبلاد والأهوية، والمسألة الثانية تتعلق بالسماع.

والفصل السادس: في تصفح مقالته (يقصد ابن رضوان) التي طلب من ابن بطلان فيها أن يسأله ألف مسألة على أن يسأله ابن رضوان مسألة واحدة (كنوع من التحدي)، ويرد ابن بطلان على ذلك التحدي، ويفرق بين طريق الخطباء والأطباء والفلاسفة في المحاورة، وبين طريق الشعراء في الذم والهجاء. وكيف أن ابن رضوان أخرج نقده، وهو تحت تأثير القوة الغضبية دون الناطقة، (وهو هنا يبدو متأثرًا بابن سينا في التمييز بين قوى النفس)، والقوة الغضبية تقابل انفعال الغضب والدافعية.

(وهو من موضوعات علم النفس العام)، والقوة الناطقة وتقابل العقل أو التفكير، ويدرس في علم النفس العام، كما يدرس في علم النفس الإكلينيكي حال اضطرابه (ص٦٣). ويتعرض في ثنايا هذا الرد كذلك للأخلاط الرديئة التي تتبع رداءة المزاج، لأن النفس تابعة للمزاج. (وهنا إشارة إلى الجانب المزاجي من الشخصية، وهو جانب مهم في اهتمامات علماء النفس المحدثين (ص٦٤)، كما يذكر مرض الماليخوليا، (وهو يقابل ما يسمى في الطب النفسي الحديث بمرض الاكتئاب Depression، وهو من الأمراض النفسية والعقلية التي يعنى بها علماء النفس الإكلينيكيون من بعض الوجوه. (وهو باب من أبواب علم النفس العام، وأعني الإحساس Sensation، والإدراك الحسي Sensory Perception (ص٦٦).

والفصل السابع: في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية، وكشف ما دخل عليه فيها من الشبهة. ويذكر فيها –بشكل عابر– بعض المفاهيم ذات الخلفية السيكولوجية مثل القوة الناطقة، (أو العقل، وقد سبقت الإشارة إليها)، والغضب، والغباء. (وهو يقابل ضعف الذكاء، وإن كان علماء النفس المحدثون قد تخلوا عن استخدامه)، وفساد العقل بمواصلة السُّكْر. (وهو من موضوعات علم النفس الحديث ذات الأهمية القصوى) (ص٩٩).

***

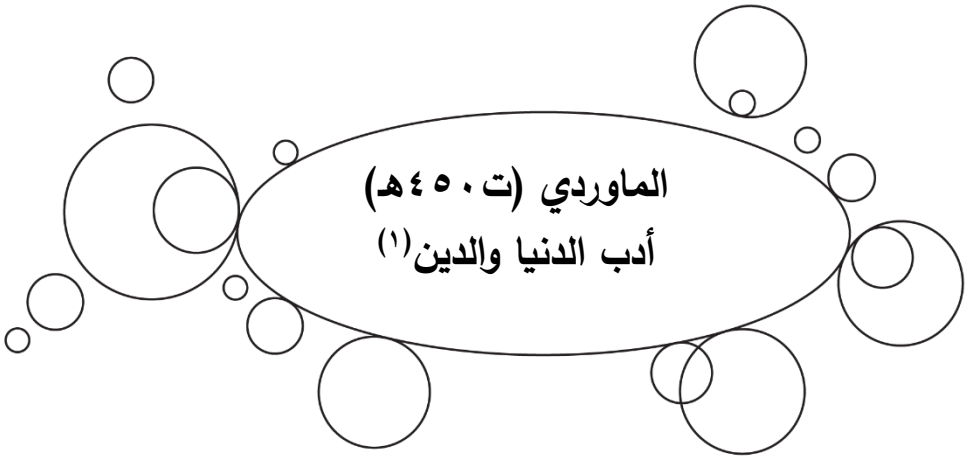

عرض: د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف[٢]:

- هو علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي، نسبة إلى بيع ماء الورد.
- فقيه وأصولي ومفسر وأديب وسياسي.
- فقيه شافعي، يميل إلى مذهب الاعتزال.
- أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الإسفراييني ببغداد.
- وولي القضاء ببلدان كثيرة، وبلغ منزلة عند الملوك وكبار الأمراء، ورقي لمنصب "أقضى القضاة" في أيام القائم بأمر الله العباسي.
- توفي في آخر سنة ٤٥٠هـ، ببغداد، وعمره ست وثمانون سنة.
- من تصانيفه في الفقه والأدب:

الحاوي الكبير في فروع الفقه الشافعي.

أدب الدنيا والدين.

قانون الوزارة.

قوانين الوزارة.

---

(١) الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٨٧م)، (ص٣١٨).
(٢) انظر: معجم المؤلفين لكحالة، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والأعلام للزركلي.

سياسة الملك.

نصيحة الملوك.

تفسير القرآن الكريم.

النكت والعيون.

الأحكام السلطانية.

عرض الكتاب:

يقع هذا الكتاب في ٣١٨ صفحة من القطع المتوسط، ويشمل خطبة الكتاب، ثم أبواب الكتاب وفصوله، وفهرس موضوعاته.

- **الباب الأول: في فضل العقل وذم الهوى:**

وفيه ينقسم العقل إلى نوعين؛ عقل غريزي وهو ذكاء بالطبع، ومكتسب وهو ذكاء بالخبرة، ويعرض للفروق والعلاقات التي تسود بينهما (ص٦-١٢)، ثم يعرض لفضائل العقل ورذائل الحمق (ص١٢-١٦) ويشير بعد ذلك إلى الهوى وماهيته ومضاره ووجوب جهاده (ص١٧-٢٣).

وينفرد هذا الباب بدلالة مهمة، تتمثل في تقسيم العقل إلى غريزي ومكتسب، ويشير الذكاء الغريزي إلى الاستعداد Aptitude الذي نمِّي بالخبرة والتجربة فصار قدرة Ability أو ذكاء بالخبرة، بعد أن كان ذكاء بالاستعداد، ونجد في أن الذكاء Intelligence محصلة لإسهامات كل من الوراثة والبيئة، كذلك نجد في نفس الباب أن وظيفة العقل كف الدوافع الفطرية، ويقصد بها الغرائز.

- **الباب الثاني: باب أدب العلم:**

وفيه يعرض لفضل العلم على المال، وفضل العلماء على الأغنياء والأمراء. كما يفاضل بين العلوم. فمن أفضلها علوم الدين، خاصة الفقه؛ لأن العبادة دون علم بها قد لا تكون عبادة. ثم يعرض لكيفية طلب العلم ووسائله كالتدرج واستخدام الرموز بين العلماء، ثم يعرض لمشكلات التواصل بينهم وأسبابها كوجود علة في الرسالة ذاتها، أو علة في المستمع كالبلادة، أو عدم صبره على طلب الفهم، أو عدم القدرة على الحفظ، والتي يمكن علاجها بكثرة الدرس وإدامة النظر، كما يشير إلى أهمية تسجيل العلم كتابة لعدم

نسيانه. ثم يعرض للأسباب التي تحول دون فهم معنى الكلام سواء أكان لفظًا أو خطًّا.

كما يتناول أهم واجبات المتعلم نحو معلمه (الخضوع والطاعة والتوقير لمعلمه)؛ لذلك يعرض لآداب العالم كعدم التفاخر بما تعلمه، وعدم الفتوى دون علم (ص٥٩-٦١)، وهو ما يمثل بعض أشكال السلوك الأخلاقي للمعلم Moral Behavior، كما يحث على مراعاة قدرات المتعلمين حتى لا يثار الملل لدى الأذكياء، أو الضجر في عقول البلداء الجاهلين، وهو ما يؤكده علماء النفس التربوي Educational Psychology (ص٤٣-٤٤).

وفي هذا الباب نلمح فكرة التدرج في طلب العلم والمران Training (ص٣٦-٣٨). ودور الاستبصار كطرق للتعلم Learning، كما يعرض لمشكلات التواصل Communication، ومنها عيوب أو اضطرابات الذاكرة، والدافعية للتواصل، والبلادة (انخفاض الذكاء) (ص٤٢-٤٦). ويشير إلى علاج مشكلات الذاكرة بكثرة الدرس وإدامة النظر، وهي نصيحة تختص بعملية تثبيت المعلومات Fixation في الذاكرة حتى يسهل استدعاؤها Recall (ص٤٥)، كما يحث في نفس الباب على إثارة دافعية التعليم عن طريق الامتناع عن استخدام العقاب Punishment، أو التوبيخ أو التعنيف للمتعلمين (ص٦٩)، كذلك نجده يذم المتعلم دون فهم، ويشار إليه حديثًا بالذاكرة الصماء Rote Memory (ص٤٥).

- **الباب الثالث: باب أداب الدين.**

ويعرض لجوانب التكليف الإلهي للعباد التي تشمل الأوامر والنواهي، سواء على مستوى الاعتقاد أو الفعل. كما يعرض للفرائض وفقًا لأولوية فرضها، وأهمية كل فريضة والمفاضلة فيما بينها. كما يشير لفكرة التدرج في التكليف، والحث على الصبر، وعلى فعل الطاعات، والصبر عن فعل المعاصي.

ثم يعرض لأقسام موقف الإنسان من العبادات: وهي الاكتمال أو التقصير أو الزيادة؛ فيما كلف. وبعد ذلك يحذر من الافتتان بالدنيا والانشغال بملذاتها. ثم يعرض لأفكار نظرية، ونماذج من الصحابة الذين لا يخشون الموت، ويتوقعونه في أي لحظة، فتوقع الموت ينم عن عدم الاكتراث بالدنيا والإعداد للآخرة.

ويلاحظ أن المؤلف يشير إلى أن البعض يمارس العبادة بالزيادة عما كلف اقتداء بغيره من الأخيار (ص٨٧، ٨٨). وفي ذلك إشارة إلى مفهوم الاقتداء أو النمذجة Modeling،

وهي أحدث أساليب التعلم الاجتماعي Social Learning، كذلك في الحث على كف الشهوات نجد الإشارة إلى قمع الشهوات والسيطرة عليها. كما نجد إشارة صريحة إلى الخوف من الموت، وهو يمثل أحد أنواع القلق، ويسمى قلق الموت Anxiety of Death. أما عن مظاهره السلوكية والوجدانية فقد وردت في هذا الباب (ص٩٥-١٠٦).

- **الباب الرابع: أدب الدنيا:**

وفي هذا الباب يشير المؤلف إلى أن الإنسان مخلوق عاجز بالنسبة لبقية المخلوقات، لديه العديد من الحاجات التي تتطلب الإشباع، وهو بالتالي أكثر حاجة إلى خالقه. ويعرض أيضًا لقواعد صلاح الدنيا، وهي: الدين المتبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح، ثم يعرض لقواعد صلاح حال الإنسان، وهي النفس المطيعة، والألفة الجامعة (المؤاخاة)، والمادة الكافية؛ ويقصد بها أن الإنسان قوامًا أو مادة يلزمها الكسب لكي تدوم له حياته ويستقيم له دينه. ويلي ذلك عرض لمصادر الكسب وأنواع الصناعة، ودواعي الإفراط في طلب المال.

وفي هذا الباب نجد الإشارة إلى عجز الإنسان، وكثرة حاجاته Needs، ودوافعه Motives (ص١٠٧). ويشير أيضًا إلى الحاجة إلى الأمن Needs of Security، وهي إحدى الحاجات النفسية التي تتطلب إشباعًا. كما يشير إلى تباين شدة هذه الحاجات بين الأفراد (ص١١٠). وهي ظاهرة عامة يشار إليها بالفروق الفردية Individual Differences. أما بالنسبة لأفكاره عن أسباب الألفة والمؤاخاة (الدين – النسب – المصاهرة ...إلخ) (ص١٤١-١٤٣)؛ فهي تشير إلى سمات الشخصية Personality Traits. وفي ثنايا الحديث عن البر نلمح أفكارًا عن سيكولوجية العطاء (الكرم وحسن الثقة)، وسيكولوجية البخل (الشره وسوء الظن)، وهو ما يتصل بدافع التملك Possessiveness. كما يعرض لدوافع جمع المال، ويحث على القناعة Satisfaction، ويعرض لمستوياتها (ص١٥٥-١٧٨). كما يشير إلى طرق الكسب، ومنها المهن والصناعة فيعرض لأنواعها ودرجاتها، وهو تقسيم يهم دارسي علم النفس الصناعي والمهني Occupational Industrial Psychology (ص١٧٩-١٨٩).

- **الباب الخامس: أدب النفس:**

يعرض الماوردي لنوعين من التأديب؛ هما:

١- تأديب الوالد لولده في صغره، وهو ما يتصل بمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization.

٢- أدب يلزم الإنسان عند نشأته وكبره (ص١٩٨، ١٩٩).

ويعرض للنوع الأخير في شقين؛ هما:

أ- أدب المواضعة والاصطلاح: أي اتباع ما استقر عليه العقلاء، واستحسنه الأدباء.

ب-أدب الرياضة والاستصلاح: وهو أدب لا يختلف العقلاء في صحته أو خطئه؛ لأنه يقوم على صحة الدليل والحجة. ويلاحظ أن هذا النوع من التأديب يتصل بمفهوم المجاراة الاجتماعية Social Conformity التي قد تهدف إلى تحقيق التوافق الاجتماعي Social Adjustment (ص١٩٩، ٢٠٠).

ويعرض الماوردي لأدب الرياضة والاستصلاح من خلال ستة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: في مجانبة الكبر والإعجاب:

وفيه يذم الكبر والمدح، ويعرض لأحاديث وروايات وحكايات وأشعار عن مضار الكبر. ويتصل ما ورد في ذلك بمفهوم صورة الذات Self-Image (ص٢٠٢-٢٠٧).

الفصل الثاني: في حسن الخلق:

وفيه يعرض لمترتبات حسن الخلق أو سوئه، ثم للأسباب التي تغير من الخُلُق أو الطباع كالولاية والعزل، والغنى والفقر، والهموم والأمراض، وكبر السن، باعتبار أنها التي تساعد على تغير المزاج والطباع. وهو ما يتصل بتغير الشخصية (ص٢٠٧-٢١١).

الفصل الثالث: في الحياء:

وفيه يحث المؤلف على الحياء؛ لأنه رادع لأهواء النفس. ويقسم الحياء إلى حياء من الله، وحياء من الناس، وحياء من النفس. ونجد في هذا الفصل بعض الدلالات التي تتصل بعدد من الأرجاع الانفعالية Emotional Reactions كالشعور بالذنب Guilty Feeling، والخجل Shame (ص٢١١-٢١٥).

الفصل الرابع: في الحلم والغضب:

وفيه يحث على الحلم باتخاذ أفضل أسبابه، وهي رحمة الجهال، والقدرة على

الانتصار، وحسن الثقة، والترفع عن السباب والاستهانة بالمسيء، والاستحياء من جزاء الجواب، والخوف من العقوبة، والوفاء، والمكر، وغيرها.

كذلك يذم فقدان الغضب في الأشياء المغضبة، ثم يعرض لمقارنة بين الحزن والغضب، يتبعه ذكر لوسائل تسكين الألم كذكر الله، والخوف منه، والطاعة له، وتذكر مترتبات الغضب، وتذكر ثواب العفو والصفح.

ويتصل ما ورد في هذا الفصل بالاضطرابات الانفعالية Emotional Reactions، مثل التبلد الانفعالي Blunting or Flattening Emotion، وشدة الانفعال، والذي يشار إليه حديثًا بعدد من المفاهيم النفسية؛ مثل سرعة الانفعال Irritability or Nervousness، وطاقة الاستثارة Excitatory Potential (ص٢١٥-٢٢٣).

الفصل الخامس: في الصدق والكذب:

وفيه يعرض لدواعي الصدق (وهي العقل، والدين)، ودواعي الكذب (اجتلاب النفع، واستدفاع الضر، والتشفي من عدو). ويذكر علامات الكذاب. يتبعه حديث عن الصدق الذي يقوم مقام الكذب في القبح كالغيبة والنميمة والسعاية (ص٢٢٤-٢٣١). ويتصل ما ورد في هذا الفصل بالسلوك غير الأخلاقي Immoral Behavior.

الفصل السادس: في الحسد والمنافسة:

ويعرض فيه لمضار الحسد وأسبابه، كفضل المحسود على الحاسد، وبغض المحسود، أو شح في الحاسد وبخله. كما يعرض لطرق مقاومة الحسد (ومن أهمها اتباع الدين والعقل)، ثم يذكر مترتبات الإخفاق في مقاومة الحسد، كسقام الجسد، وانخفاض المكانة بين الناس ومقتهم له، إلى جانب اجتناب الأوزار في مخالفة الله تعالى، ومعارضته لقضائه.

وتعد الغيرة Jealousy والحسد Covetousness من الانفعالات المركبة التي تشتمل على عديد من الانفعالات كالغضب والخوف، بجانب الشعور بالنقص والكآبة. وللحسد مترتباته النفسية والاجتماعية تعرض لذكرها الماوردي في فصل الحسد والمنافسة. ويتعرض المؤلف إلى طرق علاج اضطرابات الانفعال كالحسد عن طريق الدين والعقل. ويقترب ذلك من أسلوب العلاج السلوكي المعرفي الذي يتبعه المعالجون السلوكيون المحدثون (ص٢٣١-٢٣٦).

- **الباب السادس: أدب المواضعة:**

ويضم ثمانية فصول؛ هي:

الفصل الأول: في الكلام والصمت:

وفيه يعرض لأهمية الكلام كوسيلة للتعبير عن مستودعات الضمائر، ويعرض أيضًا لشروط الكلام، وهي: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، وأن يأتي في موضعه، وأن يقتصر منه على قدر حاجته، وأن يتخير اللفظ الذي يتكلم به.

ثم يعرض لأوجه صحة المعاني، ويليها أوجه فصاحة الألفاظ، ثم يختتم هذا الفصل بذكر آداب الكلام، كعدم التجاوز في المدح وفي الذم، وعدم الاسترسال في وعد أو وعيد، وأن يكتمل القول بالفعل والعمل.

وفي هذا الفصل نجد الإشارة إلى دور الكلام Speech كإحدى وسائل التخاطب في توصيل المعاني بين الأفراد، ويشير أيضًا إلى دوافع سلوك الكلام، ومنها أن يكون الكلام لداع، فإن لم يكن لداع فقد معناه (ص٢٣٧)، وهو ما يسمى اللغو، وقد يسمى بالإنجليزية Verbigeration. وفي عرضه لأوجه صحة المعاني؛ يشير إلى علم دراسة المعنى أو الدلالة Semantics، وهو أحد فروع علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرموز حتى تكتسب القدرة على نقل المعنى، وهو الهدف الأساسي للغة (ص٢٣٧-٢٤٧).

الفصل الثاني: في الصبر والجزع:

وفيه يعرض لأقسام الصبر؛ وهي: الصبر على الأوامر، والصبر على المكاره، والصبر على ما فات إدراكه، والصبر فيما يخشى حدوثه، والصبر فيما يتوقعه من رغبة (ص٢٤٨-٢٥٢). ويجدر بالذكر أن بعض أنواع الصبر كالصبر على الأوامر، والصبر على المكاره؛ تتصل بمفهوم نفسي وهو المثابرة Persistence، وإن كان مفهوم الصبر أكثر عمومية من المثابرة، فليس كل صبر مثابرة، وإنما المثابرة تعد بعض أقسام الصبر.

ثم يعرض بعد ذلك لأسباب تسهيل المصائب وتخفيف الشدائد، ومنها العلم بأن الحال لا يدوم، وأن الشدائد ستنجلي، وأنها لا تقصر بجزع، ولا تطول بصبر. وهو ما يتصل بطرق العلاج السلوكي المعرفي لتحقيق التوافق النفسي والاجتماعي (ص٢٥٢-٢٦٠).

الفصل الثالث: في المشورة:

وفيه يحث على مشورة ذوي الرأي الناصح، والعقل الراجح؛ خشية الندامة

أو الملامة بعد اتخاذ قرار ما. ثم يذكر خصـــال أهل المشـــاورة الواجب استشارتهم، ومنـــها العقل الكامل، والدين، والتقوى، والنصح، والود، وســـلامة الفكر من الهم، والحيـــاد. يلي ذلك عرض لواجبات أهل الشورى، كالإخلاص في تقديم النصح، وعدم تقديم المشورة إلا بعد طلبها (ص٢٦٠-٢٦٦).

الفصل الرابع: في كتمان الأسرار:

فيحث فيه الماوردي على كتمان الأسرار لما له من فوائد، ويذم من لا يكتمون سرًا؛ حيث يكون لهم ثلاثة أحوال؛ هي: ضيق الصدر وقلة الصبر، والغفلة عن تحذير العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء، وما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر. ثم يعرض للمقارنة بين حفظ الأموال الخاصة بالغير، وحفظ الأسرار، ويستخلص أن الأول أيسر من الثاني؛ ولذا فإن الأخير يتسم بالندرة بالمقارنة بالأول. كما يعرض لصفات أمناء السر، ومنها العقل، والتدين، والود، والكتمان بالطبع، ثم يحذر بعد ذلك من كثرة المستودعين لسر الشخص، فكثرتهم سبب الإذاعة وطريق الإشاعة (ص٢٦٦-٢٦٩).

ويتصل الفصلان السابقان بعملية التشاور Consultation، وهي أحد أساليب اتخاذ القرار في مجال علم النفس الصناعي والإداري، كما يلاحظ أن الصفات التي ذكر الماوردي أنه يجب أن يتحلى بها الشخص الذي يقدم المشورة هي نفس الصفات التي يجب أن يتحلى بها المرشد النفسي (ص٢٦٠-٢٦٦).

الفصل الخامس: في المزاح والضحك:

وفيه يذكر أن المزاح إزاحة عن الحقوق، ويؤدي إلى القطيعة والعقوق، وينصح بأن يكون المزاح في حدود إيناس المصاحبين، والتودد إليهم بجميل القول، ومستحسن الفعل؛ لأن الإكثار في الضحك يفقد الهيبة والوقار. ويورد بعض الأحاديث النبوية، والأشعار والحكايات التي تتصل بهذا الجانب. ويتصل هذا الفصل بمجال السلوك الأخلاقي خاصة في السياق الاجتماعي (ص٢٧٠-٢٧٤).

الفصل السادس: في الطيرة والفأل:

وفيه يعرض لحكايات عن الطيرة لدى الفرس والعرب بجانب عدد من الأحاديث النبويـــة، والروايـــات التي تستهجنها، ويشير إلى الفأل بأنه: تقوية للعزم، وباعث على الجـد، ومعونة على الظفـــر، ويحث لذلك على التفـــاؤل وحسن الظن. ويقترب ما ورد

في هذا الفصل بمفهوم التشاؤم Pessimism، والتفاؤل Optimism؛ وهما: أنواع من المعتقدات Beliefs، فالتشاؤم: هو الاعتقاد بأن جميع الأشياء تنزع بطبيعتها إلى الشر، أو الاعتقاد بأن كفة الشر والشقاء أرجح من كفة الخير والسعادة؛؛ عكس التفاؤل، والذي يبعث على تقوية العزم والاجتهاد (ص٢٧٤-٢٧٧).

الفصل السابع: في المروءة:

ويقصد بالمروءة مراعاة الأحوال إلى أن تكون النفس على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق. ويذكر أن شروط المروءة التعفُّف عن الحرام، والتصلُّف عن الآثار، والإنصاف في الحكم، والكف عن الظلم؛ إلى آخره من الصفات الحميدة، كما يذكر أن من دوافع المروءة علو الهمة وشرف النفس. ثم يعرض لشروط مروءة العبد في نفسه، وهي العفة عن المحارم والآثام، والنزاهة عن المطامع والصيانة (صيانة النفس عن تحمل المنن). أما شروط المروءة في غيره فهي: المؤازرة (وهي الإسعاف بالجاه في النوائب)، والمياسرة (العفو عن الهفوات والمسامحة في الحقوق)، والإفضال (إفضال اصطناع، وإفضال استكفاف ودفاع).

ويذكر الماوردي أن الكتاب كله في شروط المروءة وحقوقها، وهو ما يقترب من مفهوم السلوك الأخلاقي (٢٧٧-٣٠٥).

الفصل الثامن: في آداب منثورة:

ويختص بتنـــاول عدد من الآداب كآداب الملبس: ومنها التوســـط والاعتدال في الزي حسب القدرة المالية والمنزلة والحال. وآداب النوم: حيث يذم نوم الصبح، ونوم العشي، فهو يحث على تصفح ما صدر عن الصبر في نهاره قبل نومه. كما يعرض لدوافع سلوك الأكل والشرب وهي الحاجة والشهوة. كذلك لدوافع الحاجة إلى الملبس، وهي ستر العورة والتجمل والزينة. كما يحث على تصفح أحوال الغير، والاقتداء بمحاسنهم وتجنب عيوبهم. كما ينصح بالتفكير في عاقبة السلوك قبل القيام به. ويلاحظ أن هذا الفصل يقدم عددًا من الإرشادات النفسية التي تخدم غرضًا توافقيًا، وهو ما يتصل بمجال علم النفس الإرشادي والصحة النفسية.

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس:

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام، والشخصية.

***

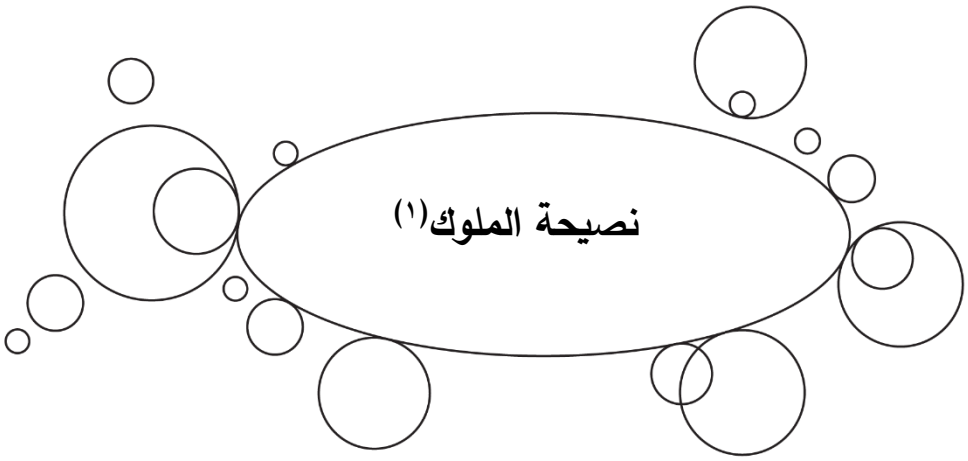

عرض: د. معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في ٦٩٣ صفحة من القطع الكبير، ويتكون من عشرة أبواب، يشتمل كل منها على مجموعة من الفصول. ويدور مضمون الكتاب حول تقديم مجموعة من النصائح للملوك، على أساس أنهم أولى الناس بأن تهدى إليهم النصائح، وأحقهم بأن يخولوا بالمـواعظ؛ إذ كان في صلاحهم صلاح الرعية، وفي فسـادهم فساد البرية. وقد أنهى المحقق كتابه بعرض فهرس مفصل للآيات القرآنية الكريمة، وآخر للأحاديث النبوية الشريفة، وآخر للأبيات الشعرية، وآخر للأعلام، وأخيرًا فهرس للموضوعات، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي:

- **الباب الأول: الحث على قبول النصائح:**

ويتكون من فصلين يوضح فيهما أن الملوك أحق بالمواعظ من غيرهم لخلال عدة؛ أهمـها: أن يترفعوا به عن مشاكلة أهل الغبـاوة والجهـالة، وسوء النشوء والعادة، وأن يرغـبوا في نتـائج النصـائح؛ لأن النصيحة هداية إلى سبيل الرشـاد، وأنهم أكثر النـاس أشغالًا وأعظمهم أثقـالًا، وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم. وليس كل مستعان بـه معيـن، ولا كل وال يستقل بما يلي، ثم يـأتي على نصيحة العلـماء للخلفاء، فيذكر

(١) تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري، تحقيق محمد جاسم الحديني، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، (١٩٨٦م)، (٦٩٣ص).

مواعظ سفيان الثوري، وعمرو بن عبيد، وابن السماك؛ لأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، في شأن قيمة الملك.

وأهم المفـــاهيم السيكولوجيـــة التي اشتمل عليـها هذا البـــاب؛ هي: مفهوم التـوجيه والإرشـــاد النفسي Counselling (ص٥١-٦١)، وسمـــات الشخصية Personality Traits (ص٥١-٥٣)، والانفعـالات Emotions (ص٥١-٦١).

- **الباب الثاني: في فضائل الملوك في علو مراتبهم، وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من اجتلاب الفضائل، واجتناب الرذائل:**

ويتكون من ثلاثة فصول تعرض لفضائل الملوك، في علو مراتبهم، وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من اجتلاب الفضائل، واجتناب الرذائل، ويستشهد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة في تفضيل الملوك على سائر البشر، وكونهم أمناء على عباد الله في أرضه ورعاة لهم. ثم يدعو الملك إلى تجنب ما يخل بجلالة المكانة ورفعة المنزلة، وأن يعمل على تغليب العقل على الطبع، والرأي على الهوى، ويؤثر ما يشير إليه الرأي على ما يصبو إليه الهوى.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي:

الارتقاء Development (ص٧١)، والفروق الفردية (ص٨٠-٨١)، والقيم الخلقية Moral Values (ص٨٣-٨٨)، والطباع Character (٨٨)، والتفكير Thought (ص٨٨-٩٣)، والانفعال (ص٨٨-٩٣)، والعادة Habit (٩٤-٩٥)، والحاجة Need (ص٩٤-٩٥)، والخصال Characteristics (ص١٠١-١٠٧)، وضبط النفس والسيطرة على الدوافع والأهواء.

- **الباب الثالث: الإبانة عن الأسباب التي من جهتها يعرض الاختلال والفساد في الممالك وفي أحوال الملوك:**

ويتكون من ثلاثة فصول تفرض أن أحوال الأمم متقاربة متشابهة، ثم لم تكن مملكة إلا كان أساسها ديانة من الديانات، وأصلها ملة من الملل، عليها بنيت شرائطها وفروضها، وجرت أحكامها وحدودها، ثم يبين أنه لا يخلو دين من الأديان، ولا ملة من الملل من منافقين فيها، ومعادين لها، وكيفما يكون المملوك فإنه يقتدي بأفعالهم، ويقتفي آثارهم في سيرهم، ثم يحث الملك الحازم والسائس الصارم؛ على أن يتعهد قلبه سماع آثار الملوك السابقين.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي:

الانفعال Emotion (ص١١٢-١١٦)، والعداوة Hostility (ص١١٧-١١٨)، والاقتداء Modelling (ص١١٨-١١٩)، والمجاراة Conformity (ص١٢١-١٢٢)، والخصال Characteristics (ص١٢٨-١٣٠)، والطاعة (ص١٣١-١٤٤).

- **الباب الرابع: في المواعظ التي تبصِّر غرور الدنيا، وتذكر بالآخرة، وتنفع من نظر فيها، واستمع لها، وتهديه إلى العدل في ملكه:**

ويتكون من سبعة فصول يبين فيها المؤلف أن الوعظ والتذكير فريضتان، ويحذر من الغرور، ويؤكد أهمية الاعتبار، وأن باب الأمن مستور بالخوف، وعلى الملك أن لا يكون في حال غير متوقع لأضدادها، وأن الإنسان أيام معدودة، والعمر أمس واليوم وغدًا، ويؤكد أن الملك لا ينال إلا بالخدمة الطويلة، والرياضة الصعبة الشديدة، والمخاطر العظيمة، والأشكال الكثيرة، والآمال البعيدة، التي ربما أتت دونها المنية؛ لأن الملك محنة وابتلاء.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي: التوجيه والإرشاد Counselling (ص١٤٧-١٦٣)، والخوف (ص١٦٣-١٦٥)، والمخاطرة Taking Risk (ص١٧٩-١٨١)، والمشقة Stress (ص١٨٣-١٩٢)، والرجاء (ص١٩٢-١٩٣).

*** الباب الخامس: في سياسة النفس ورياضتها:**

ويتكون من خمسة فصول، بتكلم فيها المؤلف عن سياسة النفس ورياضتها، ويستبعد الكلام في هذا الباب عن مراسم الجلوس واللباس والركوب والطعام والأزياء، وإنما يقتصر فيه على معاد الملوك ومعاشهم، ونظام ممالكهم وأحوالهم، فيلزمهم بتقوى الله؛ لأنها عصمة للملك، وحرز لمن تمسك بها، وهي رأس النجاح ومفتاح الفضائل، ثم يؤكد على واجب الملك، دون غيره، في إقامة أمر الدين والأخذ بآدابه، لأن الدين والصلاح جلالة في النفوس، ثم يحث الملك على اقتناء العلم باعتباره من أجل الفضائل شأنًا وأعلاها مرتبة، ثم يشير إلى الترفع عن الطمع، والأخذ بالحزم والعزم، والتأني والتؤدة في الأمور المشكلة.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي: الطاعة Obedience (ص٢٠١-٢٠٥)، والاقتداء Modelling (ص٢٠٤-٢٣٩)، وقيمة العمل

(ص٢١٤-٢١٥)، وقيمة العلم (ص٢١٥-٢١٨)، والبلوغ (ص٢١٧)، والعداوة (الأعداء) Hostility (ص٢٣٣-٢٣٧)، والالتزام Commitment (٢٣٩-٢٤٢)، والعقاب Punishment (ص١٤٣)، والتسامح Tolerance (ص٢٤٤-٢٤٧)، والحذر (ص٢٤٧)، وقيمة الصدق (ص٢٥١)، والقيم الخلقية (ص٢٥٢-٢٥٤)، والمكافأة Reward (ص٢٥٥-٢٥٦)، والمثابرة Persistence (ص٢٦٤-٢٦٦)، وضبط النفس Self-Control (ص٢٧٥-٢٧٧).

- **الباب السادس: في سياسة الخاصة:**

ويتكون من ثلاثة فصول، يتكلم فيها عن سياسة الخاصة، فيوصي الملك بالعناية في أمر خاصته، وترويضهم على الطاعة. ويقسم خاصة الملك إلى طبقات، فأخصهم به ولده وخدمه وقرابته، ثم وزراؤه، ثم جنده وقواده، ثم عماله الذين يستعين بهم في إصلاح مملكته، ثم يحدد عشر خصال يمكن الاستعانة بها على تقويم الخاصة.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب: هي: الطاعة Obedience (ص٢٨٩-٢٩٦)، والفروق الفردية Individual Differences (ص٢٩٧)، والطفولة المبكرة (ص٣٠٣، ٣٠٤)، والعلاقات الوثيقة Close Relationships (ص٣١٥-٣١٩)، والخصال Characteristics (ص٣٢١-٣٤٨).

- **الباب السابع: في سياسة العامة:**

ويتكون من فصلين، يتكلم فيهما عن سياسة العامة، فيحث الملك الفاضل، والسائس الكامل؛ بالتزام العدل بين الرعية؛ لأن العدل ميزان الله في الأرض، يأخذ به للضعيف من الشديد، وللمحق من المبطل، وأنه بالوالي تصلح الرعية، فإذا صلحت كانت زينة للملك، ثم يحد عشر خصال يمكن الاستعانة بها على صلاح العامة.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي:

قيمة العدل (ص٣٥١-٣٥٣)، والمسؤولية Responsibility (ص٣٥٣-٣٦٠)، وسيكولوجية السياسة Psychology of Politics (ص٣٥٩-٣٦٠)، والقيادة Leadership، والتعصب Prejudice (ص٣٦٦-٣٦٧)، والغضب Anger (ص٣٦٦-٣٦٧)، والأعداء (عدوان) (ص٣٩٧-٣٩٨)، واتجاهات الشدة – الليـن Tender mindedness – Tough mindedness – (ص٤٠٢-٤٠٥).

- **الباب الثامن: التدبير في الأموال:**

ويتكون من أربعة فصول؛ تتناول كيفية تدبير الأموال. وفيه يحث المؤلف على عدم الطمع في أموال الرعية، ويذم التبديد والتقتير، ثم يبسط معنى البخل والتبذير مستشهدًا بقول الله عز وجل، وأحاديث رسوله ﷺ، وآثار الملوك والحكماء، وأقوال الشعراء. ثم يتكلم عن السخاء وصنع المعروف، وكيفية إتمامه وعدم انتظار الجزاء عليه، وأن الابتداء به نافلة.

وأهم المفـــاهيم السيكـــولـــوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي: القيم المادية (ص٤٠٩-٤٦٦)، والقيم الخلقية.

*** الباب التاسع: في تدبير الأعداء وأهل الجنايات.**

ويتكون من فصلين، خصصهما المؤلف لتدبير الأعداء وأهل الجنايات، فتكلم عن إباحة دم المشركين والباغين، وعقوبة قطاع الطريق، ثم تحدث عن خصال من السياسة، وتدابير المناجزة، ثم يوصي الملك بأن لا يلقى حربًا بنفسه، ويذكر ما يستعمله الملك إذا دفع للقتال بنفسه، وما هو الواجب عليه بعد الظفر بعدوه.

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب؛ هي: العدوان Aggression (ص٤٥٧-٥٢٠)، والعقـــاب Punishment (ص٤٦٣-٤٦٩)، وسيكـــولـــوجيـــة السيـــاســـة (ص٤٧١-٥٢٠)، وخصـــال الشخصـــية (ص٤٧١-٥٢٠)، والتيقـــظ Vigilance (ص٤٧٩-٤٨٤).

- **الباب العاشر: في تقديم النيات، وطلب التأويلات لكثير مما يجري في أيدي الملوك والأمراء مما اختلف فيه كثير من العلماء، وكرهه كثير من الفقهاء.**

ويتكون من فصلين، يعرض فيهما المؤلف لاختلاف العلماء في الخصال التي يشتغل بها الملوك والأمراء، من تحليل وتحريم الأشياء، وأحوال الناس في الحلال والحرام وكراهيته، ثم يختتم الكتاب بخصال مأثورة، وخلال مذكورة عن الملوك الأولين، والخلفاء الراشدين، والحكماء المتقدمين، وذوي التجارب والحجى، والأحلام والنهى؛ هي أعمدة السلطان، وأركان الدول، وأساس السياسة، وجمال الملك والخلافة.

وأهم المفـــاهيم السيكـــولـــوجية التي وردت في هذا البـــاب؛ هي: الفروق الفـــردية Individual Differences (ص٥٢٣-٥٢٥)، وخصـــال الشخصـــية (ص٥٢٣-٥٢٥، ص٥٣٩-٥٦٣)، والكراهية Hate (ص٥٢٩-٥١٣)، والنية (المقصد) Intention (ص٥٢٣-٥٦٣).

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس:

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام، وعلم النفس الاجتماعي.

***

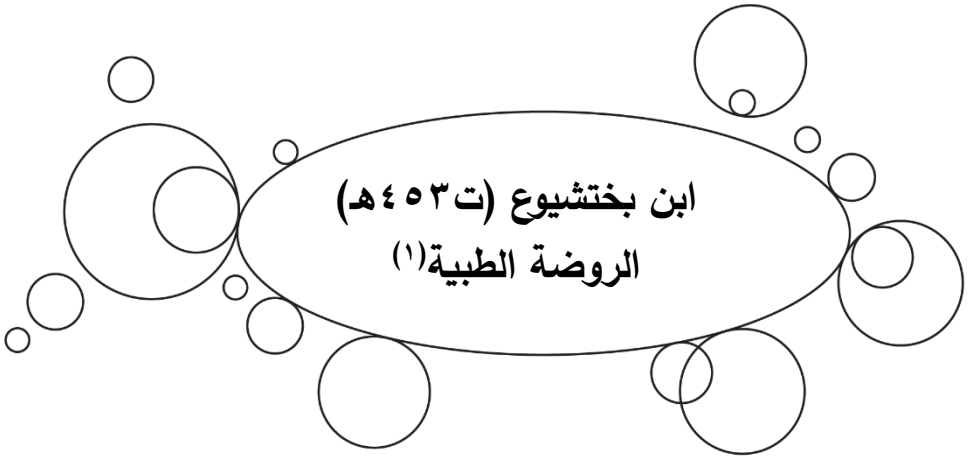

عرض: د. عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف:

عبد الله بن جبرائيل بن عبيد بن بختشيوع، أبو سعيد، طبيب باحث، من أهل ميافارقين، له تصانيف؛ منها: "مناقب الأطباء"، و"الروضة في الطب"، و"التواصل إلى حفظ التناسل"، و"طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها"، و"الخاص في علم الخواص"، و"عقد الجمان في طبائع الإنسان والحيوان".

عرض الكتاب:

يشتمل الكتاب على خمسين بابًا نعرض لها على النحو الآتي:

- **الباب الأول:** في: **ما الجنس؟** وهو المقول على كثيرين مختلفين في النوع، فهو شيء يعم أشياء مختلفة الصور.
- **الباب الثاني:** في: ما النوع؟ وهو المحمول على كثيرين مختلفين بالشخص من طريق ما، فهو شيء يعم أشياء مختلفة الأشخاص يعمها صورة واحدة.
- **الباب الثالث:** في: ما الفصل؟ وهو المقول على كثرة مختلفة بالنوع من طريق أي شيء.
- **الباب الرابع:** عن الخـــاصة، وهي المحمـــول على كثرة مختلفـــة بالشخـص متفقـة

(١) عبيد الله بن جبرائيل بن بختشيوع، تصحيح بولس سياط، القاهرة، المطبعة الرحمانية، (١٩٢٧م)، (٧٣ص).

بالصورة فقط منابة عن آنية الشيء الذي هو لها خاصته، وليست بجزء له. ويقترب ذلك من مفهوم Characteristic أو السمة Trait (ص١١-١٢).

- **أما الباب الخامس:** فهو عن العرض، ويقصد به كل محمول على الجوهر.
- **الباب السادس:** في الجوهر، وهو القائم بنفسه، ويوصف بأنه ليس في موضوع، وهو في موضوع الأجسام القابلة للكون والفساد، وهو المحل الذي يتم فيه وجود الأعراض.
- **الباب السابع:** في الكم، وهو صفة تختص بمقادير الأشياء وأعدادها.
- **الباب الثامن:** في الكيف، وهو صفة تكون للموصوف وتعسر مفارقتها، والفرق بينها وبين العرض أن العرض يطرأ ويزول من غير فساد الموضوع... والكيفية ليست كذلك.
- **الباب التاسع:** في الطبيعة، وهي ابتداء الحركة، ويقصد بذلك الحركة التي في ابتداء كون الجسم والسكون الذي ينتهي إليه اضمحلال ذلك الجسم.
- **الباب العاشر:** في الجثة، وهي الموصوفة بالطول والعرض والسمك.
- **الباب الحادي عشر:** في الأسقطس، وهو الشيء الذي في الغاية، والشيء الذي في الغاية لا ينحل؛ لأنه غير مركب.
- **الباب الثاني عشر:** في المزاج؛ وهو اختلاط الممتزجَيْن لكي يستحيلا إلى هيئة المزاج.
- **الباب الثالث عشر:** في الخلط، وهو أسطقس للبدن ثابت موجود فيه.
- **الباب الرابع عشر:** العضو، وهو جزء من بدن الإنسان يحتاز بحيز خاص، وأعد لفعل ما.
- **الباب الخامس عشر:** القوة، وهي سبب فاعل، وقد توصف بصفة مأخوذة من جهل العقل.

ويرتبط هذا الفصل بموضوع التفكير Thinking، والتخيل Imagination، والإحساس Sensation (ص٢٦-٢٨).

- **الباب السادس عشر:** في الفعل، وهو تأثير في موضوع، وتختلف الأفعال بسبب اختلاف الشيء الفاعل.

ويرتبط هذا الباب بمفهوم النفس Psyche (ص٢٨).

- **الباب السابع عشر:** الروح، وهي جسم لطيف هوائي تسري في الأعضاء، وتعين

القوى على أفعالها.

- **الباب الثامن عشر:** النفس، وهي –على مذهب أرسطاطاليس– نماء لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة. وعلى مذهب أفلاطون أنها جوهر بسيط عقلي يتحرك من ذاته. كما عرضها المؤلف في ضوء عدد من المذاهب، ويرتبط بمفهوم النفس Psyche (ص٣١–٣٢).
- **الباب التاسع عشر:** في تعريف العقل، فهو على مذهب أرسطاطاليس جوهر بسيط لا يشبهه شيء من الأشياء التي من جوهر الهيولى المركبة، وعلى مذهب فيثاغورث جوهر بسيط نووي مختلط بكل شيء، ورسمه من جهة الطباع، أنه الدال على حقائق الأشياء.
- **الباب العشرون:** في الشهوة واللذة.

ويرتبط بالدافعية، وكذلك بالإحساس (ص٣٣، ٣٤).

- **الباب الحادي والعشرون:** ويتحدث فيه عن العشق، وهو تجاوز الحد في المحبة، وأنه يختص بالنفس الناطقة، وهو يؤدي إلى فساد التخيل والفكر.

ويرتبط بموضوع الانفعالات Emotions، وكذلك بموضوع الخيال Imagination (ص٣٥–٣٩).

- **الباب الثاني والعشرون:** الحس، وهو قوة للنفس مدركة للمحسوسات، والحاسة آلة لها تدرك بها محسوساتها.

ويرتبط بموضوع الإحساس Sensation (ص٣٩، ٤٠).

- **الباب الثالث والعشرون:** التخيل، وهو ثبات صور المحسوسات في النفس بعد مفارقتها، ويرتبط بمفهوم الاحتفاظ Retention (ص٤١).
- **الباب الرابع والعشرون:** في الفكر، وهو التسبب والنظر إلى المعارف والوقوف على حقائق الأشياء المتخيلة، ويكون بالجزء الأوسط من الدماغ.

ويرتبط بموضوع التفكير Thinking (ص٤١).

- **الباب الخامس والعشرون:** في الذكر، وهو إحضار ما قد سبق وجوه في الذهن، أي ما سبق اكتسابه والاحتفاظ به.

ويرتبط بمفهوم التذكر Memorization (ص٤١، ٤٢).

- **الباب السادس والعشرون:** في الخُلُـق، وهو حـــالة للنفس داعيـــة الإنســـان إلى أن

يفعل أفعال النفس بلا رويَّة ولا اختيار، ونسب المتأخرون الخُلُق إلى النفس الناطقة.

ويرتبط هذا الباب بموضوع الاتجاهات وسمات الشخصية (ص٤٢، ٤٣).

- **الباب السابع والعشرون:** في الغضب، وهو غليان دم القلب لإرادة الانتقام، وأيضًا هو الحركة لقهر ما أخذه.

ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (خاصة انفعال الغضب Anger معناه وأنواعه)، (ص٤٣، ٤٤).

- **أما الأبواب الثامن والعشرون، والتاسع والعشرون، والثلاثون، والحادي والثلاثون، والثاني والثلاثون:** فتتناول بالترتيب: الحركة، والزمان والمكان، والكون، والفساد، والعلم.
- **الباب الثالث والثلاثون:** في المعرفة، وهي الوقوف على الشيء وقوفًا حقيقيًا، ولها نوعان: معرفة خاصة تصح بالبرهان (لمعرفة الهندسة والحاسب)، والمعرفة العامة، وهي التي يداخلها الحواس.

ويرتبط هذا الباب بمفهوم المعرفة Knowledge (ص٤٧).

- **أما الأبواب الخامس والثلاثون، والسادس والثلاثون، والسابع والثلاثون، والثامن والثلاثون:** فتتناول القياس، والبرهان، والعلة، والنوم.
- **الباب التاسع والثلاثون:** في الرؤيا، وتكون بحضور أمثلة الأشياء عند النوم. وترتبط بسيكولوجية النوم والأحلام (ص٥٠-٥٧).
- **أما الباب الأربعون:** فهو عن النبض، والباب الحادي والأربعون: عن البُحْران، وهو تغير يعرض للأمراض فجأة.
- **والباب الثاني والأربعون:** عن المرض.
- **والباب الثالث والأربعون:** عن السبب.
- **والباب الرابع والأربعون:** عن العلامة.
- **والباب الخامس والأربعون:** عن الصحة.

ويرتبط بمفهوم الصحة النفسية (ص٦٥).

- **أما الباب السادس والأربعون:** فهو عن الغذاء.
- **والباب السابع والأربعون:** عن الدواء.

- **والباب الثامن والأربعون:** عن الغاذي والمغتذي.
- **والباب التاسع والأربعون:** الأبصـــار، ويرتبط بموضـــوع الإدراك Perception (ص٦٩).
- **أما الباب الخمسون:** فهو عن الصوت.

***

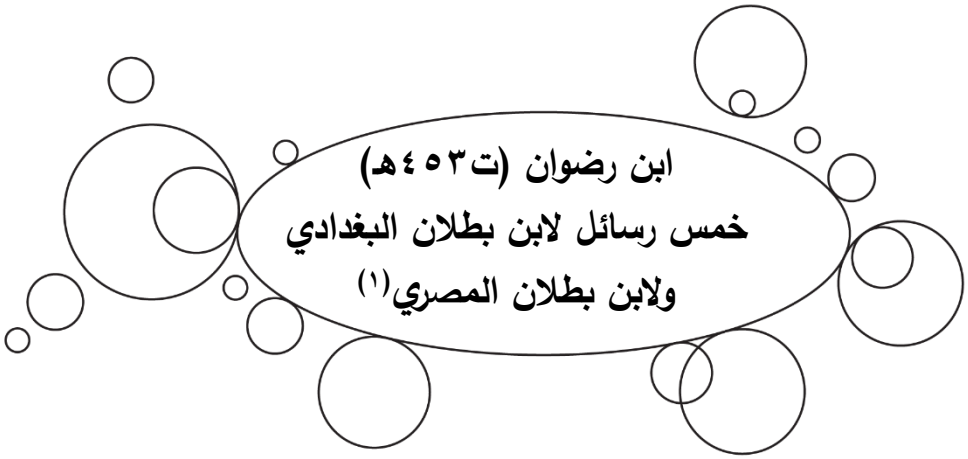

عرض: د. جمعة سيد يوسف

التعريف المؤلف[٢]:

هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطبيب، كان عالم مصر في أوانه في الأيام المستنصرية في وسط المئة الخامسة، وكان في أول أمره منجمًا يقعد على الطريق ويرتزق، ثم قرأ شيئًا من الطب، وشيئًا من المنطق، وكان من المعلقين لا المحققين. ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة، ومع هذا فتتلمذ له جماعة من الطلبة، وأخذوا عنه وسار ذكره، ولابن بطلان معه مجالس ومحاورات وسؤالات.

ويذكر أن ابن رضوان تغير عقله في آخر عمره، وكان السبب في ذلك أنه عند حدوث الغلاء في مصر، أخذ يتيمة ورباها وكبرت عنده، فلما كان في بعض الأيام خلا لها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فأخذت الجميع وهربتن ولم يظفر منها على خبر، ولا عرف أين توجهت، ويذكر أيضًا أنه كانت عنده سفاهة في بحثه، وتشنيع على من يريد مناقشته.

وكانت وفاة علي بن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة بمصر، وذلك في خلافة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز عبد الله بن الحاكم.

---

(١) ابن رضوان المصري، ابن بطلان البغدادي؛ تقديم يوسف شخت، القاهرة، الجامعة المصرية، كلية الآداب [د.ت]، سلسلة كلية الآداب، المؤلَّف رقم (١٣)، نسخة مصورة، (طبعت هذه الرسائل في مجموعة واحدة مع رسائل ابن بطلان البغدادي).

(٢) استمدت هذه الترجمة مما ذكره القفطي، وابن أبي أصيبعة، وساقه المحققان في مقدمة هذه الرسائل.

ومن كتبه: شرح كتاب الفرق لجالينوس، وشرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس، وشرح كتاب الأسطقسات لجالينوس، وكتاب الأصول في الطب، ورسالة في علاج الجذام، وكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب، وكتاب دفع المضار عن الأبدان بمصر، وتفسير مقالة الحكيم فيثاغورث في الفضيلة، وتفسير ناموس الطب لأبقراط، وكلام في الأدوية المسهلة، وكتاب في عمل الأشربة والمعاجين وغيرها كثير. (وقد بلغ ما أحصاه ابن أبي أصيبعة من مؤلفات ١٠٢ مؤلفٍ).

ولابن رضوان ثلاث رسائل أو مقالات من الرسائل الخمس المشار إليها في عنوان هذا الكتاب، وهي شديدة الإيجاز، وسنعرض لها فيما يلي:

رسائل ابن رضوان:

تشمل هذه المجموعة من الرسائل ثلاث رسائل لابن رضوان جمعت مع رسائل ابن بطلان في شكل محاورات بينهما، وقد طبعت رسائل ابن رضوان مع رسائل ابن بطلان، وهي جميعًا تقع في حوالي ٤٤ صفحة. ورسائل ابن رضوان؛ هي: **الأولى** في التنبيه على ما في كلام ابن بطلان من الأغاليط، **والثانية** في أن علمه يقين وما ظنه ابن بطلان غلط وسفسطة، **والثالثة** هي رسالة ابن رضوان إلى أطباء مصر والقاهرة المعزية يشكو فيها حاله، وما جرى بينه وبين ابن بطلان.

وهو يضعها تحت اسم مقالات، ونعرضها على النحو التالي:

المقالة الأولى: في التنبيه على ما في كلام المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي (المعروف بابن بطلان) من الأغاليط، ويبدؤها بذكر قول جالينوس: إن الطبيب فيلسوف كامل، وإنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب، والفيلسوف الكامل هو الذي حصل له العلم التعليمي والطبيعي والإلهي والمنطقي، فالطبيب هو الذي حصل كل واحد من هذه على الكمال أي بلغ فيه الكمال، ثم يذكر أن ابن بطلان ليس فيه شيء من هذه، وإنما هو مدع، كما يفرق بين علوم القول والعمل أخذًا عن جالينوس كذلك. ويتعرض لمناقشة ما ذكره ابن بطلان في أن الفرُّوج أحر من الفرخ، ثم يتعرض في ثنايا هجومه على ابن بطلان لاختيار العقل، وعدم القدرة على الفهم، وقصور المعرفة، والهذيان في الكلام، (وهو مس غير مباشر للعقل، وما يمكن أن يدخل تحته من فهم، ووظائف معرفية، واضطرابات التفكير الذي يتبدى في اضطرابات الكلام، وهي

موضوعات اهتم بها علماء النفس المحدثون اهتمامًا مباشرًا (ص٤٣، ٤٤).

والمقالة الثانية: لابن رضوان في أن ما علمه يقين وحكمة، وما ظنه مختار بن الحسن البغدادي غلط وسفسطة، وهي رسالة شديدة الإيجار والاختصار، ويواصل ابن رضوان فيها رده على خصمه ابن بطلان، وكيف أنه –أي ابن رضوان– قد لزم في رده العلم والحكمة فأورد فيه منافع وفوائد كثيرة من الفلسفة النظرية والعملية، ويهاجم بشدة خصمه ابن بطلان، ويصفه بأن مريض النفس، وليس لهذا المرض دواء. (ولعل مصطلح مرض النفس أو الأمراض النفسية من المصطلحات ذات الدلالة البالغة عند الأطباء النفسيين وعلماء النفس الإكلينيكيين في الوقت الراهن (ص٧٣)، ويرى أيضًا أن الاجتهاد في التماس الحق والمواظبة عليه هو الطريق إلى السعادة، وكذلك فإن تحقيق الفهم والمعرفة هي من طرق السعادة أيضًا. (ونلاحظ أن مفهوم السعادة Happiness من المفاهيم التي تلقى اهتمام علماء النفس).

والمقالة الثالثة: والأخيرة؛ بالنسبة لابن رضوان، فهي موجهة إلى أطباء مصر والقاهرة المعزية يشكو فيها حاله، وما جرى بينه وبين العلامة المختار بن الحسن البغدادي الطبيب. وفيها يسوق بعضها من كلام ابن بطلان، ثم يحاول تفنيده أو بيان الخطأ فيه، تبصيرًا للأطباء المصريين الذين يخصهم برسالته أو مقالته. وجميع الأقوال التي اختارها أو علق عليها ذات طبيعة طبية تتعلق بصناعة الطب والدوار، وكلها تتركز حول الأمراض الجسمية، غير أنه في ثنايا ذلك يعرض لمفهوم مهم من المفاهيم الحديثة التي ابتكرها علماء القياس النفسي ونقلها عنهم، واستخدمها المشتغلون بالعلاج السلوكي Behavior Therapy، ألا وهو مفهوم التدرج في الانتقال من حالة لحالة مثل الأسلوب المعروف بالتحصين التدريجي Gradual Desensitization، أو التسكين المنظم (ص٨٣).

وكما نلاحظ من هذه الرسائل الثلاث أنها موجزة، وأن ما ورد بها من مفاهيم أو مصطلحات ذات صلة بعلم النفس قليلة، وغير مباشرة، وهو عكس ما لاحظناه في رسالة ابن بطلان التي تعرض ناقلها لبعض فصولها بشيء من التفصيل، وإنما أوردنا رسائل ابن رضوان باعتبارها ردًا على ابن بطلان وذلك حتى تكتمل الصورة لدى القارئ.

***

ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)
طوق الحمامة[١]

عرض: د. شعبان جاب الله رضوان

التعريف بالمؤلف:

هو الإمام الجليل أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الظاهري، من قرطبة بالأندلس، المولود سنة ٣٨٤هـ، والمتوفى سنة ٤٥٦هـ، وقد اهتم بنشر العلم وتحصيله رغم ما اعترضه من الموانع في هذا السبيل، وقال عنه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان أبو محمد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، وبخاصة في البلاغة والشعر والسير والأخبار. وقال عنه أبو عبد الله الحميدي: إنه كان عالمًا حافظًا بعلوم الحديث وفقهه، وذكر صاعد بن أحمد: أن أبا رافع الفضل بن علي (ابن المترجم له) أخبره أنه قد اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف صفحة، ومن هذه المؤلفات التي ذكرها المؤرخون ما يلي:

١- الفصل بين أهل الأهواء والنحل.

٢- الصادع والرادع على من كفَّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد.

٣- الجامع في حد صحيح الحديث.

٤- التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتب والحديث.

---

(١) ابن حزم الأندلسي، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة [د.ت]، (٢٣٩ص)، (خزانة الفكر العربي٢٦)، (المرجع: الأخلاق والسير لابن حزم).

٥- منتقى الإجماع.

٦- الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبهم.

٧- كتاب أخلاق النفس.

٨- كتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه.

٩- كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض.

١٠- كتاب فهم السنن في الملل والنحل.

١١- حجة الوداع.

١٢- المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار.

١٣- الإحكام لأصول الأحكام.

عرض الكتاب:

يقع هذا الكتاب في ٢٣٩ صفحة من القطع الصغير، ويحتوي على ثلاثين بابًا بالإضافة إلى مقدمة الناشر، وتوطئة المؤلف، وخاتمة، وفهرس الموضوعات.

وفيما يلي عرض لهذه الأبواب:

- **الباب الأول: الكلام في ماهية الحب.**

ويدور حول مفهوم الحب وأنواعه، ومنها الحب غير النفعي، أي المجرد عن الأهداف الشخصية، وهو الحب في الله، وهو أفضل أنواع الحب، ويتسم بالاستمرار وعمق المشاعر نحو المحبوب، وهناك محبة القرابة والألفة، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة بلوغ اللغة، ومحبة العشق، وينقضي الحب المعلل بانقضاء علته.

أما البغض وهو ضد المحبة؛ فقد لا يكون له سبب أو علة، ويؤثر الحب في إدراك الأشياء؛ فهو يزين للمرء ما كان يأنف منه، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ولا يود المرء الإفاقة منه. ويتصل هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الحب) في علم النفس العام (ص١٧-٢٥).

- **الباب الثاني: علامات الحب.**

ومنها النظر بالعين، والحديث بالكلام، والإسراع بالسير نحو مكان المحبوب، وتعمد القعود بقـربه، والتبــاطؤ عند القيام عنه، والبهت والروعة عند رؤية المحبوب فجأة والانبساط

الكثير، ويحدث القلق عند رجاء لقاء المحبوب، ويتتبع المحب أخبار المحبوب ويهتم بحركاته، ومن علامات الحب أيضًا البكاء، وهو من مظاهر الانفعال، كما يتصل ذلك بموضوع التواصل أو التخاطب Communication في علم النفس الاجتماعي (ص٢٦-٣٦).

- **الباب الثالث: باب من أحب في النوم.**

يشير إلى الحب الذي يحدث من خلال الأحلام، ويتوهمه الإنسان ويتمسك به. ويتصل ذلك بسيكولوجية الأحلام Dreams والتوهم.

- **الباب الرابع: باب من أحب بالوصف.**

يتناول انفعال الحب الذي يتم من خلال سماع المحب لوصف المحبوب، ويتخيل المحب صورة المحبوب.

ويتصل هذا بسيكولوجية الخيال Imagination (ص٣٩-٤١).

- **الباب الخامس: باب من أحب من نظرة واحدة.**

ويدور حول تكون انفعال الحب لدي الإنسان من نظرة واحدة للمحبوب، وهذا الحب ينقضي بسرعة، ويتصل ذلك بموضوع الانفعالات (ص٤٢-٤٤).

- **الباب السادس: باب من لا يحب إلا مع المطاولة.**

ويهتم بالحب الذي لا ينشأ إلا بعد فترة طويلة من مشاهدة ومؤانسة المحبوب، وهذا الحب يتسم بالاستمرار، وهو يتصل أيضًا بباب الانفعالات (ص٤٥-٤٩).

- **الباب السابع: باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها.**

يتناول أثر الحب في الحكم على الأشياء، فالذي يحب صفة في محبوبه يسيطر عليه هذا الحب، ويقتصر حبه على هذه الصفة دون غيرها. ويرتبط هذا الجزء بتأثير الانفعال في التفكير، وفي إصدار الأحكام (ص٥٠-٥٣).

- **الباب الثامن: باب التعريض بالقول.**

يدور حول الكلام، كأداة للتعبير عن الحب، ويتصل هذا المعنى بمفهوم التواصل اللفظي Verbal Communication في علم النفس الاجتماعي (ص٥٤-٥٦).

- **الباب التاسع: باب الإشارة بالعين.**

يتناول النظر بالعين كإحدى وسائل التعبير غير اللفظي عن الحب، وأيضًا الإشارات والإيماءات. وهذا هو الجانب غير اللفظي Non-Verbal من التواصل (ص٥٧-٥٩).

- **الباب العاشر: باب المراسلة.**

يشير إلى المراسلة كوسيلة التواصل بين المحب والمحبوب، وهي وسيلة لإثارة مشاعر الحب لدى طرفي علاقة الحب.

- **الباب الحادي عشر: باب السفير.**

فعندما تحل الثقة بين المحب والمحبوب يمكن أن يتم التواصل بينهما من خلال سفير (رسول) يتسم بالذكاء والفطنة.

- **الباب الثاني عشر: باب طي السر.**

يتناول كتمان أسرار الحب ومظاهره، وذلك لإبقاء المحب على محبوبه، ويعتبر من دلائل المحب من محبوبه انحرافًا، ويكون ذا نفس أبية، فيستتر بما يجد لكي لا يشمت به عدو. ويمكن أن يتصل ذلك بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص٦٤-٦٨).

- **الباب الثالث عشر: باب الإذاعة.**

ويتناول كشف الحب وإظهاره وإذاعة أسراره؛ مما يؤدي إلى عواقب سيئة على الإنسان، وربما يكون بسبب غلبة الحب والميل نحو الجهر أكثر من الحياء، ويشير هذا إلى خصائص وسمات الشخصية (ص٦٩-٧٢).

- **الباب الرابع عشر: باب الطاعة.**

يتناول أثر الحب في تغيير شخصية المحب التي قد تتسم بالشراسة والطباع القوية إلى شخصية طائعة لينة مستسلمة، ويرتبط هذا المعنى بمفاهيم وسمات شخصية؛ مثل التسلطية والخضوع (ص٧٣-٧٨).

- **الباب الخامس عشر: باب المخالفة.**

ويدور حول تحقيق رغبات المحب ولو خالف ذلك هوى المحبوب، ويعني هذا عدم تطابق وجداني Affective Incongruence بينهما (ص٧٩).

- **الباب السادس عشر: باب العاذل.**

ويهتم هذا الباب بأنواع الأصدقاء الذي يقومون بالحث والحض والزجر لإنهاء علاقة بين طرفين، فأحيانًا يتسم هذا الصديق برفق القول والنصح الأمين. وهو يفيد في تهذيب النفس. وقد يتسم بالزجر وكثرة الملامة؛ وذلك عبء ثقيل على النفس. ويدخل النوع الأول في إطار التوجيه والإرشاد النفسي Counselling Psychology (ص٨٠، ٨١).

- **الباب السابع عشر: باب المساعدة من الإخوان.**

يتناول هذا الباب صفات وخصائص الصديق الوفي الذي يقف مع المحب في شدائده، ويصون أسراره ويؤانسه، ويدخل ذلك في موضوع سيكولوجية الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص٨٢-٨٥).

- **الباب الثامن عشر: باب الرقيب.**

وهو عن أنواع الأشخاص الذين يقومون بعملية الرقابة على المحب ومحبوبه، سواء الرقابة المتعمدة لمعرفة حقائق عنهما، أو رقابة غير متعمدة لعدم فطنة الرقيب. ويتصل ذلك بموضوع سيكولوجية العلاقات الاجتماعية Social Relationship في علم النفس الاجتماعي، وأيضًا سمات الشخصية (ص٨٦-٨٩).

- **الباب التاسع عشر: الواشي.**

ويدور حول الشخص الواشي الذي يريد أن يوقع ويفرق بين المتحابين بأساليب مختلفة، منها ذكر صفات سيئة عن المحب للمحبوب ليست فيه. ويدخل ذلك في سمات الشخصية، وسيكولوجية العلاقات الاجتماعية (ص٩٠-٩٨).

- **الباب العشرون: باب الوصل.**

ويتناول العلاقة المباشرة بين المحب والمحبوب، أو العلاقة اللاحقة للهجر أو الفراق، ومظاهر هذه العلاقة الدالة على شدة الحب بينهما، وهو يتصل بموضوع الانفعالات (ص٩٩-١٠٩).

- **الباب الحادي والعشرون: باب الهجر.**

يتحدث المؤلف في هذا الباب عن مظاهر الهجر وأنواعه؛ ومنها الهجر نتيجة ذنب يقع من المحب، أو نتيجة التدلل، فيظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر محبه. وهناك هجر بسبب الوشـاة أو الملل أو جفـاء المحبوب. ويتصل هذا بسيكولوجية العلاقات الاجتماعية

والانفعالات (ص١١٠-١٢٤).

- **الباب الثاني والعشرون: باب الوفاء.**

يدور هذا الباب حول خاصية مهمة في العلاقة بين المحب والمحبوب، وهي خاصية الوفاء، والتي تعتبر فرضًا لازمًا وحقًا واجبًا على المحب والمحبوب، ولا يحول عنها إلا الخبيث الذي لا خلاق له ولا خير عنده. ويتصل هذا بموضوع سيكولوجية العلاقات الشخصية وسمات الشخصية (ص١٢٥-١٣٢).

- **الباب الثالث والعشرون: باب الغدر.**

ويدور حول خاصية ذميمة ومكروهة تفسد العلاقة بين المحب والمحبوب، وهي الغدر، وبخاصة الغدر الذي يقع من السفير بينهما، فيغدر على المحب، ويستأثر بالمحبوب دونه. ويتصل هذا المعنى بموضوع العلاقات المتبادلة في علم النفس الاجتماعي Interpersonal Relationship (ص١٣٣-١٣٤).

- **الباب الرابع والعشرون: باب البين.**

ويتناول الفراق بين طرفي علاقة الحب وأنواعه، ومنها الفراق المؤقت لسبب معين، أو الفراق بسبب منع المحبوب نفسه من أن يراه محبه، ومظاهره الحزن والأسف. أو المتعمد من المحب بعدًا عن قول الوشاة، أو الفراق الناتج عن الرحيل، وتباعد الديار، وهو خطب موجع. ويشير المؤلف هنا أيضًا إلى مواقف الوداع ومظاهرها وآثارها على النفس، وإلى الفراق بسبب الموت، وهو فراق قاطع لكل رجاء، ويتصل بموضوع انفعال الحب، والعلاقات الشخصية بين المحب والمحبوب (ص١٣٥-١٤٩).

- **الباب الخامس والعشرون: باب القنوع.**

ويتضمن موضوع الرضا والقنوع في حالة الحرمان من الوصل الحقيقي والمباشر بين المحب والمحبوب، بهدف راحة النفس. وهذا القنوع به درجات متباينة؛ منها القنوع بالنظر إلى الجدران التي يسكنها المحبوب، أو الراحة لمن رأى المحبوب أو أتى من بلاده. ويتصل بموضوع الانفعالات، ومظاهرها: انفعال الحب (ص١٥٠-١٦٠).

- **الباب السادس والعشرون: باب الضنى.**

يهتم هذا الباب ببيان بعض المظاهر أو الآثار السلبية المترتبة على عدم الوصل بسبب

الفـراق أو الهجـر، وذلك كالاختـلاط العقـلي أو الانشغـال الذهـني بدرجـة عالية أو الجنـون. وينـضـوي ذلـك تحـت عـلم النـفس الإكلينـيكي أو المـرضي Clinical psychology (ص١٦١-١٦٥).

- **الباب السابع والعشرون: باب السلوّ.**

ويتناول السلوّ كعاقبة للحب، وهو أنواع، منها السلوّ الذي يعقب الهجر وهو كاليأس، وهناك أيضًا السلو الطبيعي المسمى بالنسيان، وهنا يبدو الإنسان كأنه لم يحب قط، والسلو التطبعي، وهو التصبر، ويبدي فيه الإنسان التجلد رغم ولع قلبه. ومن أسباب السلو الملل والاستبدال والحياء، وكلها من المحب، وهناك أيضًا الهجر والجفاء والغدر والنفار، وهي من المحبوب.

- **الباب الثامن والعشرون: باب الموت.**

يدور حول شدة الحب والولع بالمحبوب، والذي قد يؤدي إلى الموت ومفارقة الدنيا. وهذا إشارة إلى شدة الانفعال (ص١٨١-١٨٩).

- **الباب التاسع والعشرون: باب قبح المعصية.**

يتحدث المؤلف في هذا الباب عن طبيعتين متعارضتين خلقهما الله تعالى في الإنسان هما قوتا العقل والغرائز، فيحث العقل على الخير والحسن، وتقود الغرائز إلى المعصية والإثم كفعل الزنا واللواط. ومفهوم الغريزة يتصل بموضوع الدوافع Motives هو الجنسية المثلية Homosexuality، ويتعلق بعلم النفس المرضي (ص١٩٠-٢١٦).

- **الباب الثلاثون: باب فضل التعفف.**

يشير المؤلف في هذا الباب الأخير من الكتاب إلى فضل العفة، وترك المعصية، وتجنب الفواحش كالزنا واللواط، وجزاء ذلك في الآخرة من ثواب عظيم.

ويمكن أن يتصل هذا المعنى بمفهوم توجيه وضبط الدافع Motive الجنسي، ويدخل في علم النفس العام (ص٢١٧-٢٣٦).

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس:

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام، وخاصة الانفعالات.

***

عرض: د. جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب:

الكتاب يقع في ٦٩ صفحة من القطع المتوسط، ويضم الكتاب –بالإضافة إلى ترجمة المؤلف، ومؤلفاته، وخطبته– أحد عشر موضوعًا.

والموضوع الأول: هو مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، وفيه يميز المؤلف بين مصادر اللذة لصنوف من البشر، فلذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله باجتهاده، وهي تختلف عن مصادر اللذة في الدنيا والأكل والشرب واللعب.

ويحث المؤلف على العمل للآخرة فهو الأبقى، وعاقبته السرور في العاجل والآجل. والسرور في الآجل هو دخول الجنة، والسرور في العاجل هو قلة الهم، وطرده، وهو ما يستوي الناس في استحسانه، وهو مذهب اتفقت الأمم كلها في السعي إليه. ويحاول من جانبه البحث عن سبيل موصلة إلى طرد الهم، الذي هو مطلب النفس، واهتدى إلى أنه موجود في التوجه لله، والعمل للآخرة

ونلمح من هذا الحديث بداية أولية مبكرة لأحد الموضوعات التي تهم الدارسين في مجـــال علم النفس الإكلينيكي والصحة النفسية والطب النفسي، وهو الاكتئاب Depression،

(١) ابن حزم، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، (ط٣)، بيروت، دار الآفاق الجديدة (١٩٨٠م)، (٦٩ص).

خاصة ما يسمى بالاكتئاب التفاعلي أو تغيرات المزاج، وكيفية تشخيصها ومعرفة أسبابها وعلاجها (ص١٣-١٦).

والموضوع الثاني: بعنوان العقل والراحة، ويعرفه باطراح المبالاة بكلام الناس، والمبالاة بكلام الخالق، ويحذر من الاستماع لكلام الناس مدحًا وذمًا، سواء كان بالحق أو بالباطل؛ لأن ذلك قد يورث الإنسان العجب والغرور، فيفسد فضائله، أو يضله ويخدعه، وذلك نقص شديد أحرى بالعاقل ألا يتخلق به. وعليه أيضًا أن يربي نفسه على التمييز بين الفضائل والرذائل، وبين الطاعات والمعاصي حتى يسعد في دنياه وأخراه. ويحاول أن يبصر البشر بالابتعاد عن مصادر المغرور والكبر كالإعجاب بالقوى والصفات الجسمية والبدنية؛ لأن سعادة الإنسان بقوة تمييزه، واتساع علمه، وحسن علمه. ويحذر من "الغضب" مسترشدًا في ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ولعل حديثه عن الغضب يعد سبقًا لدراسة أحد الموضوعات التي تدرس الآن في إطار علم النفس العام، وهو موضوع الانفعالات Emotions (ص١٩، ٢٠).

وينتقل بنا ابن حزم ليحدثنا في الموضوع الثالث عن العلم وأسباب طلبه، وفضله على طالبه في الدنيا والآخرة. ويحذر من الجهل وسوء عاقبته. ويرى أن من أهم فوائد الاشتغال بالعلم قطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، وكف الأفكار المؤلمة للنفس، والتخلص من الآمال التي لا تفيد غير الهم، ثم يرسم طريق نشر العلم وإذاعته، على أن يكون ذلك بين من يبجلون العلم، وحذر في نفس الوقت من البخل في العلم. ويلفت ابن حزم النظر إلى نقطة أصبحت الآن حقيقة واقعة؛ ألا وهي (التخصص في العلم)، أي أن يختار الإنسان علمًا معينًا فيفضله على غيره من العلوم، وأن يبحث كل طالب علم له عن قدوة ومثل أعلى يطمح في الوصول إليه. (وهو أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس الحديث داخل ما يسمى بسمات الشخصية خاصة ما يعرف بمستوى الطموح Level of Aspiration، أو التعلم بالاقتداء Modeling كما في ميدان التعلم (ص٢١-٢٥). ويختتم هذا الموضوع بالتحذير من الدخلاء على العلم، وما يمكن أن يسببوه من إفساد له.

وتحت عنوان الأخلاق والسير، يقدم ابن حزم عددًا من الإرشادات والنصائح والوصايا القيمة، والتي تقوى بها الأخلاق، وتصلح بها النفوس، فهو يوصي بمعرفة عيوب النفس، وعدم الاندماج في مخالطة الناس؛ لأن ذلك يجر الذنوب والهموم. (وينهى في نفس الوقت عن الانعزال العام)، ويدعو إلى الهمة وعدم تأجيل عمل اليوم

إلـى الغـد. ويوصي بعدم الاستمـــاع إلى الوشاية، ويحث على الشجاعة والإيثار والعفة والعـدل والكرم والتواضع، وأن نتوقع ما لا نحب حتى نحتمـله عندمـــا يحدث. (وهو هنا يشير إلى موضوع يدرس في علم النفس الحديث تحت ما يسمى بالتوافق Adjustment، وكيـــف يوصي العلمـــاء بتوقع المشقة Stress حتى نقلل من وقعـــها علينا عند حـــدوثها)، (ص٢٦-٢٨)، ويعلي من قدر المتدينين وإن لم يكونوا على ديننا.

وفي مقابل ذلك يحذر من الثأر والانتقام، والغدر، وشهادة الزور، والسُّكر. (ويدرس ذلك الآن تحت مسميات الاعتماد Dependence أو الإدمان Addiction)، (ص٢٨)، وينهى عن البخل والشح، والظلم والجور، والغضب والحقد، وحب الذكر.

ويختتم نصائحه بأنه لا يوجد مخلوق يخلو من عيب، وأن من علم نقصه كان كاملًا. وهذه الموضوعات تدخل فيما يعرف في علم النفس الحديث بالقيم الأخلاقية والانفعالات.

وفي الموضوع الخامس، وتحت عنوان: الإخوان والصداقة والنصيحة؛ يحدد ابن حزم إطـــارًا للصداقة الحقة، ويرسم معـــالمها، فيحبذ العتـــاب بين الأصدقاء، وينهى عن إفشاء الأسرار، وألا نقابل إساءة الصديق بالإساءة، وأن نتحلى بالعفو، وبذل الفضل لمن سأل ومن لم يسأل. (وهو من أحدث الموضوعات التي تدرس الآن في علم النفس الاجتماعي Social Psychology تحت مسمى سلوك المساعدة Helping Behavior (ص٤١، ٤٢)، وأن نقدم النصيحة والشفاعة بلا شروط، ثم يحدد حدود الصداقة وغاياتها، وحد النصيحة ومراتبها، ويقدم بعض الهدايات التي ينبغي أن نسترشد بها في معاملة الأصدقـــاء. ويختتم هذا الجزء بتقسيم النـــاس إلى سبع مراتب: أهل الثقـــافة، وأهل الملق والطمع، وأهل الخط والحمق، وأهل السلاطة والوقاحة، والعيابون، وأهل الفضل، وأهل السلامة.

والموضوع في مجمله يدخل في أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي الحديث، وهو المهارات الاجتماعية Social Skills، ومنها الصداقة Friendship، وكذلك موضوع الإرشاد النفسي (ص٤٠-٥٠).

واستكمـــالًا للحديث الســـابق، يحدثنا في الموضوع السادس عن المحبة وأنواعها، ويـرى أن المحبة كلـــها من جنس واحد، ولكنها تختلف باختـــلاف الأغـــراض فيـــها. ومن

أنواعها المحبة لله، وللأب وللابن، وللقرابة، والصديق، وللسلطات.. وغير ذلك. ويحدد أدنى أطماع المحبة ممن تحب، وأقصى أطماع المحب ممن يحب، ويورد عددًا من الأقوال في المحبة، فيقسمها إلى عدة مراتب: هي الاستحسان، والألفة، والكلف والشغف، ويقسم كذلك الصور إلى أنواع؛ فمنها: الحلاوة، والقوام، والروعة، والحسن، والملاحة. وهذا الموضوع كما قدم على هذا النحو يدخل ضمن موضوع الانفعالات Emotions الذي يدرس في علم النفس العام (ص٥١-٥٦).

وفي الموضوع السابق، يحدثنا عن الأخلاق، والعادات، فيلفت النظر إلى عادات الرسول الكريم ﷺ وأخلاقه. ويبدأ بعد ذلك تقديم عدد من الأخلاق والعادات المحببة، وعدد آخر من العادات والأخلاق الذميمة، وذلك من خلال تقديم المتضادات والنقائض ليبرز محاسن الأولى ومساوئ الثانية؛ فهو يوضح حد العقل في أنه استعمال الطاعات والفضائل، وحد الحمق في استعمال المعاصي والرذائل، وحد السخف هو العمل والقول بما لا تحتاجه الدنيا أو الدين، وحد الوقار هو وضع الكلام في موضعه، والتوسط في تدبير المعيشة، والمسالمة، وهي كلها ضد السخف، كما يحذرنا من الدهاء، والتعدي، والتخليط في القول والكذب، ومخالطة جلساء السوء، والمساعدة فيما يعود علينا بالضرر، ويحثنا على القناعة والوفاء، ويرى أن أصول الفضائل أربعة، هي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود. وأن أصول الرذائل أربعة هي: الجور، والجهل، والجبن، والشح. ثم يدعونا إلى التأسي بخلق الرسول ﷺ.

وبعد ذلك، وفي الموضوع الثامن، وهو وثيق الصلة بسابقه: يتحدث عن أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها، وهنا يبدو ابن حزم كالطبيب البارع الذي يشخص الداء ويصف الدواء. ويرى أن مصدر الداء يكمن في العجب والغرور، وعدم إدراك عيوب النفس. ويعدد مصادر العجب؛ كالعجب بالآراء، والعلم، والعجب بالمال، والعجب بمدح الآخرين وثنائهم، والعجب بالنسب، وهو في كل مرة يفند حجة المعجب بمصدر إعجابه، فكل مصادر العجب وهبنا الله إياها، ويمكنه أن يسلبها منا إن لم نحسن استخدامها، وينهانا في الوقت نفسه عن الخوض في عيوب الآخرين، وعن التعسف وسوء التصرف فيمن تحت أيدينا، ولا نتطاول على من لا يملك المعارضة، ويجعل أسباب ذلك كله في نقص العقل؛ لأن من نقص عقله توهم أنه أوفر الناس عقلًا وأكملهم تمييزًا. ويرى أيضًا أن أشد آلام الناس هي الخوف والهم والمرض والفقر. وهو في كل مرة يصف فيها داء يقدم معه علاجه، ويرى أن رياضة النفس وترويضها،

وتذكرها لنقائصها، والتمسك بالفضيلة ونبذ الرذيلة؛ من أهم دعائم العلاج.

والموضوعات الثلاثة المتبقية صغيرة نسبيًا، لكنها لا تقل من حيث الأهمية. ففي الموضوع التاسع يحدثنا عن غرائب النفس، فيذكر منها التروي في إصدارها الحكم، وعدم الأخذ بالظاهر المرئي، بغية الإنصاف، ومن عجائب الأخلاق –أيضًا– أن الغفلة مذمومة، وأن استعمالها محمود. وقد يبدو هذا القول متناقضًا إلا أن ابن حزم يقدم الدليل على اختفاء التناقض، ويستدل على ذلك بإظهار الجزع وإبطانه، وفي إظهار الصبر وإبطانه أيضًا، ثم ينتقل بعد ذلك لمواصلة الحديث في الموضوع العاشر عن تطلع النفس إلى ما يستر عنها من كلام مسموع، أي شيء مرئي، أو إلى المدح وبقاء الذكر. وهي من الأمور التي لا يخلو منها أحد، أي الفضول وحب الاستطلاع، ويبين كيف أن الانشغال بهاتين الصفتين قد يجر على الإنسان الهم، كما أنه لم يجن من وراء ذلك الشيء الكثير، فكم من ملوك وعلماء، وأخيار الأمم ذهبوا أو لم يبق لهم أثر، ولا لأحد بهم علم!. وبدلًا من ذلك يجب أن نشتغل بشكر المنعم، والاهتمام بأموره، وحسن الدفاع عنه والوفاء له، ونشر محاسنه، وأن نفعل ما هو أكثر من ذلك مع المنعم الأعظم سبحانه وتعالى، فهو أساس كل نعمة، والمجزي عن كل خير.

وفي الموضوع الأخير –الحادي عشر– يقدم ابن حزم وصية غالية يحض فيها على حضور مجالس العلم، وآداب هذا الحضور، فيكون الحضور حضور المستزيد من العلم، والسؤال سؤال المتعلم، والمراجعة مراجعة العالم، وأن من تعلم فليتعلم الخير، وليعمل به، وفي ذلك جمع لعدد من الفضائل.

***

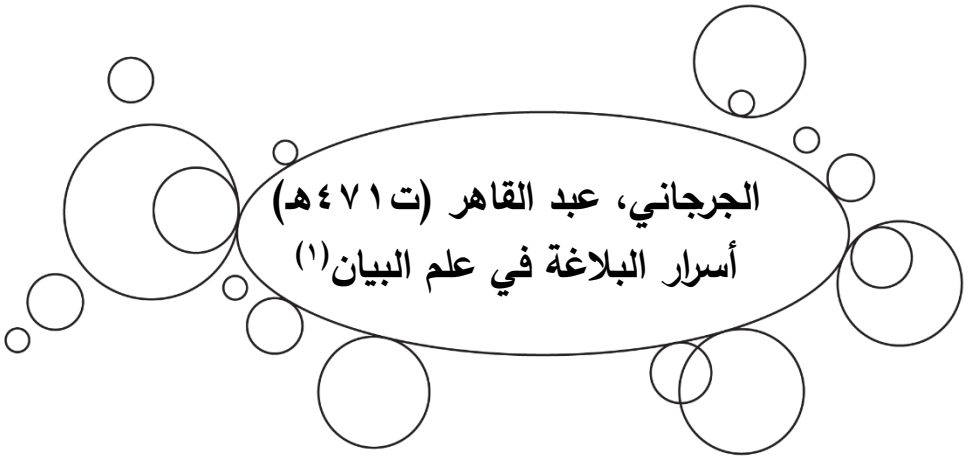

عرض: د. طريف شوقي

التعريف بالمؤلف:

ولد الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني سنة (٤٠٠هـ-١٠١٠م)، بمدينة جرجان، ولقب بإمام علوم اللغة في عصره.

وقد اهتم بتدوين علم البلاغة، ووضع قوانين للمعاني والبيان لما تحكمت في عصره دولة الألفاظ، واستبدت على المعاني، وطال الوقوف على مدلول الألفاظ المفردة والجملة المركبة، والانصراف عن المعاني للأساليب، ومغازي التراكيب.

ومثل عبد القاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه (أشهر كتابين له)، كمثل ابن خلدون في مقدمته.

فعبد القاهر يعد أول من أسس من هذا الفن (البلاغة) قواعده، وأوضح براهينه، وأثبت فوائده، ورتب أفانينه كما يقول يحيى بن حمزة الحسيني الذي كتب (الطراز في علوم حقائق الإعجاز)، وهو أحسن ما كتب في البلاغة بعد عبد القاهر.

وكان عبد القاهر بجانب شهرته في علوم اللغة، مشتغلًا بعلوم الكلام وفقيهًا، وقد توفي رحمه الله (٤٧١هـ.)

---

(١) تأليف عبد القاهر الجرجاني، صححها محمد رشيد رضا، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلمية (١٩٨٨م)، (٣٧٢ص).

عرض الكتاب:

مقدمة الكتاب:

يتحدث فيها عن وظيفة اللغة وأهميتها، ومكانة المعنى والدلالة فيها، وكيف أن اللغات تتفاضل في حقيقتها بالبيان، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة، على وجه يكون أقرب إلى القبول، وأدعى إلى التأثير، فالحسن والقبح لا يتوقف على اللفظ والجرس، ولكن العبرة بالمعنى.

كالتجنيس فإنك لا تستحسن فيه تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا (حميدًا)، فالألفاظ خدم المعاني، فمن نصر اللفظ على المعنى، ربما طمس بكثرة ما يتكلفه المعنى وأفسده، فاللفظ لا يجتلب من أجل السجع، فالمتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما (ص٤، ١٠). ويردف قائلًا: أعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته؛ أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأبين في جوهره كالذهب الإبريز (لأنه محمل بالمعنى الجلي)، وجل المعول على شرفه على ذاته، إن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره، ومنه ما هو (ما لا يحتوي على قدر كاف من المعنى) كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها قيمة تغلو، ومنزلة تعلو، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها، وفجعتهم فيها بما سلب حسنها المكتسب بالصنعة، فلم يبق منها إلا المادة العارية من التصوير، والطينة الخالية من التشكيل؛ سقطت قيمتها، وانحطت رتبتها، وعادت الرغبات التي فيها زهدًا (ص١٩، ٢٠).

يجدر الإشارة إلى أن هذه الزاوية من النظر من حيث التركيز على المعنى في اللغة؛ كانت موضع اهتمام باحثي علم اللغويات النفسية.

ثم ينتقل بعد ذلك ليعرض أهم مباحث هذا العلم، ويرى أن الاستعارة والتشبيه والتمثيل أصول، وأن جل محاسن الكلام –إن لم تقل كلها– متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنا أقطاب تدور عليها المعاني في منصرفاتها، ويبدأ في عرضها على نحو مفصل فيما يلي:

١– تعريف الاستعارة:

أن يكون لفظ الأصل (المشبه به) في الوضع اللغوي معروفًا، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمل في غير ذلك الأصل، وينقل إليه نقلًا غير لازم،

فيكون هناك كالعارية، وتنقسم إلى قسمين:

أ- **الاستعارة غير المفيدة:** هي اللفظ الذي استعمل في غير الجنس الذي وضع له في اللغة، كأن نضع للعضو الواحد أسماء كثيرة بحسب اختلاف الأجناس؛ نحو: وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، فإذا استعمل الشاعر شيئًا منها في غير الجنس الذي وضع له، كأن يستعمل الشفة للبعير، فقد استعار منه (ص٢٢، ٢٣).

ب-**الاستعارة المفيدة:** ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني، وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك، مثل قولنا: رأيت أسدًا، لتعني رجلًا شجاعًا (ص٢٤).

والاستعارة تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، كما أنها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد من قدره نبلًا، وتوجب له الفضل فضلًا، (ص٣٢، ٣٣),

٢- أقسام الاستعارة:

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسمًا أو فعلًا، فإذا كانت اسمًا فإنه يقع مستعارًا في قسمين.

أ- أن تنقله من مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت ومعلوم، وذلك كقول: رنت لنا ظبية، وأنت تعني امرأة (استعارة حقيقية).

ب-أن يؤخذ الاسم عن حقيقته، ويوضع موضعًا لا يبين منه شيء يشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبًا منابه (الاستعارة التخيلية). فالتشبيه في الأول مباشر، وفي الثاني يراءى لك بعد أن تخرق إليه سرًا، وتعمل تأملًا وفكرًا، فهو أمر تخيلي، كأن تقول: كلمتني عيناه عما يحوي قلبه، فثبت الكلام للعين وهو أمر متخيل (ص٣٤، ٣٥).

٣- دلالة الحال:

يروي الشيخ عبد القاهر حديثًا للجمحي عن لغة العيون هذا وصفه: قال أحدهم: أتيت للجمحي أستشيره في امرأة أردت التزوج بها. فقال: أقصيرة هي أم غير قصيرة؟ قال: فلم أفهم ذلك، فقال لي: كأنك لم تفهم ما قلت، إني لأعرف عين الرجل إذا عرف، وأعرف فيها إذا أنكر، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر، أما إذا عرف فإنها تخاوص (إذا غض من بصره قليلًا مع تحديق)، وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو

(تسكن)، وإذا أنكر فإنها تجحظ (إذا عظمت مقلتها)، (ص٣٩).

وهذا الحديث يتضمن إشارة إلى أحد الموضوعات المهمة في علم النفس الاجتماعي، وهو التخاطب غير اللفظي، وأهمية عنصر التقاء العيون Eye Contact في إقامة تفاعل اجتماعي أكثر فعالية مع الطرف الآخر، وكيف يمكن استخدام وسائل التخاطب غير اللفظي في توضيح المعنى للطرف الآخر، وزيادة إمكانية التأثير فيه.

٤- طرق الاستعارة:

ويفصل القول في ضروب الاستعارة، وهي عنده تتمثل في:

أ. الاستعارة المتحدة في الجنس، المختلفة الأنواع، ومثاله: استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة.

ب. الاستعارة القريبة من الحقيقة، كقول المتنبي مادحًا سيف الدولة:

نثرتــهم فوق الأحيدب نثــرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

ج. الاستعارة فيما وجه الشبه فيه حقيقي: أي يكون الشبه مأخوذًا من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له.

د. وجه الشبه العقلي في الاستعارة: حيث يكون الشبه مأخوذًا من الصور العقلية، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب، ويشير إلى أهمية ذلك الضرب من الاستعارة بقوله: إن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، وهي على أصول ثلاثة:

أ- أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة المدركة بالحواس على الجملة؛ للمعاني المعقولة مثل استعارة القسطاس للعدل، فهذا شبه أخذ من محسوس (عياني) لمعقول (مجرد).

ب-أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس، ثم الشبه عقلي مثل قول الرسول ﷺ: "**إياكم وخضراء الدمن**"، الشبه مأخوذ للمرأة من النبات، وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه خصائص النبات من شكل ولون وطعم، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء من المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدمنة (الموضع الذي فيه النفايات). وهو ما كان حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن.

ج- أخذ الشبه من المعقول للمعقول: كأن نصف الجهل بالموت (ص٤٩-٥١).

٥- حقيقة التشبيه والتمثيل:

الشيئان إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أ- التشبيه: وذلك بأن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج منه إلى تأويل، مثل: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة.

ب-التمثيل: الشبه الذي يحصل بضرب من التأويل، وذلك كأن ترجع وجع الشبه إلى معنى يتحقق في الطرفين بشيء من الحيلة والتلطف، أي أنه تشبيه عن طريق العقل، والمقاييس التي تجمع بين الشيئين من حكم تقتضيه الصفة المحسوسة لا في نفس الصفة، كقولهم في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة.

ثم يعقد تفرقة بين التشبيه والتمثيل فيبين أن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلًا، وأن التشبيه أقوى من التمثيل في وجه الشبه، ثم يتحدث على نحو من التفصيل عن الشبه العقلي.

٦- مواقع التمثيل وتأثيره في النفس:

إن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه رفع من أقدارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، فإن كان حجاجًا كان برهانه أنور، وبيانه أبهر، وإن كان وعظًا كان أدعى للفكر وأبلغ في التنبيه والزجر (ص٩٢، ٩٣).

فقابل بين أن تقول: إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره، -وتقتصر عليه-. وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أن النبي ﷺ قال: "**مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به كمثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه**"، (ص١٠١).

٧- أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية:

أ- أول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي (مجرد)؛ إلى جلي (عياني)، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها إلى الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، فكما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة (ص١٠٢).

ب-ضرب آخر من الأنس: وهو ما يوجبه تقدم الأُلْف، ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولًا عن طريق الحـواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذن أمس

بها رحمًا، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالفعل المحض إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم (ص١٠٢، ١٠٣).

ج- إننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر، فأنت إذا قلت للرجل: "أنت مضيع للحزم في سعيك، وطالب لما لا تناله"، ثم عقبته بقولك: "وهل يحصل في كف القابض على الماء بشيء مما يقبض عليه؟"، ولو كان الرجل على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل له سعيه على شيء، فأدخل يده في الماء وقال: انظر، هل حصل في كفي من الماء شيء؟ كذلك أنت في أمرك؛ كان ذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون العمل مما يدل على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسًا (ص١٠٤-١٠٧).

إن الجرجاني يلخص أسباب تأثير التمثيل في أنه يجسد للفرد المعاني التي يصعب عليه إدراكها، ويجعله على أُلْفة بها؛ لأنه ينقلها إليه عن طريق مألوف لديه، ويقدم نموذجًا عمليًا للفرد، وهذه العناصر مجتمعة من شأنها أن تزيد من القدرة على الإقناع Persuasion، والذي يعد من بين الوسائل الرئيسية لتغيير اتجاهات الأفراد حيال موضوع ما.

٨- خصائص التمثيل الجيد:

أ- دقة المعنى: ويريد المعنى الدقيق الذي أتاك ممثلًا، فهو في الأكثر يتجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكر وتحريك الخاطر والهمة في طلبه. "إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك"، (ص١١٨).

ب-البعد عن التعقيد: فالتعقيد إنما كان مذمومًا لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثله تحصل الدلالة على الغرض، ويعثر فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك إلى المعنى فيه، بل وربما قسم فكرك، وشعب ظنك حتى لا تدري من أين تتوصل إليه؟ وكيف تطلبه؟ (ص١٢٠-١٢٥).

ج-أن يتم فيه تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة، فإن الأشياء المشتركة في الجنس، متفقة في النوع، تستغني بثبوت الشبه بينها، وقيام الاتفاق فيها، عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها، وأنها لصفة تستدعي جودة القريحة أن تجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة، ويقتضي ذلك إيجاد الائتلاف بين المختلفات، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات التي تنتسب إلى الدقة. فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافًا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم مع ذلك أتم، والائتلاف

أبين، كان شأنها أعجب، وإذا كان هذا ثابتًا ومعلومًا في حال الصورة المصنوعة والأشكال المؤلفة؛ فاعلم أنها القضية في التمثيل واعمل عليها، واعتقد صحة ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال (ص١٢٧، ١٢٨).

واعلم أني لست أقول لك: إنك متى ألَّفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة؛ فقد أصبت، بل أقوله بعد تقييد، وبعد شرط، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس، وفي ظاهر الأمر شبهًا صحيحًا معقولًا، وتجد للملاءمة والتأليف السوي بينهما مذهبًا، وحتى يكون ائتلافهما الذي يوجبه تشبيهك من حيث العقل والحدس، في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس، فأما أن تستكره الوصف، وتروم أن تصوره حيث لا يتصور؛ فلا (ص١٣٠).

د- إدراك المشابهات الخفية التي يدق المسلك إليها، والتي لا تنجلي إلا بعد التألق في استحضار الصور وتذكرها، وعرض بعضها على بعض، وتجريدها من سائر ما يتصل بها، نحو أن يشبه الشيء في هيئة الحركة، فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة، والهيئة مجردة من الجسم وسائر ما فيه من أوصاف (ص١٣١)، أي كما يشير علماء النفس إدراك أوجه الشبه الجوهرية المجردة بين أشياء تبدو مختلفة. وهي من بين القدرات المهمة التي تقيسها اختبارات الذكاء، ويطلق عليها القدرة على التجريد، وكمثال على ذلك إدراك أوجه الشبه بين الشجرة والذبابة، ويعد الفرد مدركًا لوجه الشبه المجرد بينهما حين يقول: إنهما كائنات حية تنمو وتموت.

٩- الجملة والتفصيل في ضروب التشبيه والتمثيل:

أ- إن الجملة أبدًا أسبق إلى النفوس من التفصيل، وإنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل، ولكنك ترى بالنظر الأول، والوصف على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر، فالجمل أبدًا هي التي تسبق إلى الأوهام (الأذهان)، وتقع في الخاطر أولًا، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة التذكر (ص١٣٨)، وهذا التصور يعبر عما هو معروف من حقائق علمية في مجال سيكولوجية الإدراك؛ من أن الفرد يدرك الشكل على نحو إجمالي أولًا، ثم يبدأ في إدراك التفاصيل، وأما قوله: "إن معرفة الشيء عن طريق الجملة غير معرفته عن طريق التفصيل"، فهو قريب الشبه بالمبدأ الإدراكي السائد في مدرسة الجشطالت من أن

الكل لا يساوي مجموع الأجزاء.

ب–من شأن اعتبار كثرة من التفاصيل في التمثيل أن يزيد التأثير في النفس، وخاصة حين يكون الشبه منطبقًا عبر هذه التفاصيل، وكذلك كلما كان الشبه يرجع إلى صورة غريبة نادرة وبعيدة عن النظر، وقليلة التردد عليه كانت أبدع؛ على عكس تلك التشبيهات المبتذلة التي يكثر رؤيتها أبدًا (ص١٣٩–١٤٣).

ويمضي الإمام الجرجاني في تناوله لمسائل دقيقة في التشبيه، والتي من شأنها أن تزيده دقة وتأثيرًا؛ مثل: الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه، والتشبيه المركب والفرق بينه وبين التشبيه المتعدد، وقلب التشبيه أو العكس في طرفي التشبيه، والفرق بين التشبيه والتمثيل، والاستعارة والتمثيل.

ويعرج إلى موضوع آخر وهو السرقات الأدبية، وكيفية الحكم فيها أو الفرق بين التخيل والاستعارة، ويختم كتابه بالحديث عن الحقيقة والمجاز، والفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي، والفرق بين المجاز والاستعارة، وكيف أن المجاز أعم من الاستعارة، ونلمس في سياق استعراضنا لما كتبه عن المجاز اللغوي والمعنوي ذلك التصنيف الأساسي للمعنى في اللغة، من حيث إن لكل كلمة معنىً إشاريًا، ومعنى دلاليًا، ومدى اهتمامه بالتعامل مع المعنى الدلالي للغة، وبيان مدى تأثيره في المتلقي، وهي من نقاط الاهتمام الرئيسية في بحوث سيكولوجية المعنى Semantic Psychology.

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس:

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي.

***

عرض: د. عبد المنعم شحاتة

عرض الكتاب:

يقدم (دلائل الإعجاز) نظرية في اللغة تعتمد على ائتلاف اللفظ والمعنى، وتتفق في كثير من مبادئها مع أحدث ما كتبه علماء لغة أو علم نفس معاصرون.

ويسعى الجرجاني في كتابه هذا إلى التفرقة بين مستويات الكلام، فمنها ما هو عادي على ألسنة العوام، ومنها ما هو بليغ أو فصيح على ألسنة الخواص (ومنهم الشعراء)، ومنها ما هو معجز يفوق طاقة البشر كالقرآن الكريم. ودراسة الشعر العربي وتحديد شواهد الفصاحة والبلاغة فيه وسيلة لمعرفة هذا الإعجاز؛ لذا يبدأ الجرجاني كتابه (ص٩) بالدفاع عن الشعر، فهو ديوان العرب، ثم يدافع (ص٢٣) عن النحو وأهميته كعلم، وكميزان لتحديد الكلام الفصيح من غيره، بل وكوسيلة لتحديد مستويات مختلفة من الفصاحة من خلال تحديده للعلاقات الممكنة والمحتملة بين الألفاظ، سواء كانت أسماءً أو أفعالًا أو حروفًا. والفصاحة -في رأيه (ص٤٠-٤٠١)- هي نظم للكلام بحسب معانيه، أو ترتيب معاني الكلام أولًا، ثم ترتيب الألفاظ على حذوها، وبهذا يرفض الجرجاني (ص٤٥-٣٠٦، ٣٠٨-٣٦٧) ربط الفصاحة بالقدرة على الأداء الصوتي كما فعل الجاحظ، أو اعتبارها صفة للفظ، مستشهدًا على صحة رأيه بعرض

(١) نسخة بيروت: دار المعرفة (١٩٨٢م). وعدد صفحاته ٤٢٨ صفحة من القطع المتوسط. صحح أصله كل من الإمام الشيخ محمد عبده، واللغوي الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، وصحح طبعته وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا (منشئ المنار) .

نموذجين من الشعر –عبر ذكر عدد من الأبيات لعديد من الشعراء البارزين– يتفقان في المعنى ويختلفان في اللفظ، ومع ذلك نصف أحدهما –دون الآخر– بالفصاحة، مما يعني أن الفصاحة تتصل بالمعنى (٦٩–٣١٢)، فلا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون في صاحبتها. بمعنى آخر؛ ففصاحة اللفظ تعود إلى معناه لا إلى ترتيب حروفه (ص٤٠). والكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنًا الخبر، الذي لا يكون إلا بمخبر عنه، ويمكن إثباته ونفيه؛ ولهذا الكلام ضربان: أحدهما: تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وثانيهما: تصل منه إلى معنى المعنى، أي يدلك اللفظ على معناه، ولهـــذا المعنى دلالة ثانيـــة تصل به إلى الغرض، من هذه الاستعارة والكناية، أي أن أهم ما يوجب الفصاحة هو المجاز (بما فيه من استعارة)، والإيجاز. (ص٥٣–٦٣، ص٩٩–١٥١). ويقدم الجرجاني أمثلة من القرآن الكريم، ومن الشعر العربي، تعد نماذج من المجاز والاستعارة، وضروبًا من التقديم أو التأخير (ص٨٣–١١١)، والتنكير والحذف (ص١١١–١٦٩)، والفصل والوصل (ص١٧٠–١٨٧)، والعطف (ص١٨٧–١٩١)، والإثبات والنفي والقصر (ص٢٥٢–٢٧٣)، تبرز لنا مواضع كل منها التي فيها لطف وفصاحة، ومواضعها التي تخلو من البلاغة، على أساس أن معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى، مؤكدًا أنه لا يصح فيها التقليد أو الاحتذاء (ص٢٧٨–٣٤٢)، فقد يغير ترتيب الكلمات من معناها، كما للمتكلم دور في هذا الترتيب (ص٢٧٦)، أي في صنع أسلوبه الذي هو ضرب من النظم أو طريقة فيه، وأي تحول في الأسلوب يؤثر في المعنى لا محالة؛ إذ يتصل النظم –في جوهره– بالمعنى، وتكتسب الكلمة حسنها من وضعها في سياق معين أو ترتيب يقتضيه علم النحو (ص٢٨٢، ٣١٤، ٣٤٩)، وتوجيه قوانينه وأصوله. ولا يكون ترتيبًا حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة، إن لم يقدم فيها ما قدم، ولم يؤخر ما أخر، وبدئ بالذي ثُنِّي به، وثُنِّي بالذي ثُلِّث به؛ لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة.

ويختتم الجرجـــاني كتـــابه (ص٤١٨–٤٢٨) بتوضيـــح أهمية تذوق البـــلاغة أو الفصـــاحة، وضرورة تعلمها، وهذا لا يكون دون توفر الاستعداد لدى الفرد لتذوقها، أي لا يكون مهـــيًّا لإدراكها، وتكون فيه طبيـــعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهـــما في نفسه إحســـاسًا بأن من شـــأن هذه الوجوه والفروق –في معاني النحو– أن تعـــرض فيـــها المزية على الجملة، فيعرف لطف الحذف –أو التنكير أو القصر ...إلخ–

في موضع، أو عدم لطفه في موضع آخر.

ويأتي تأكيد الجرجاني على أن النظم يكون بترتيب المعاني في الذهن أولًا، ثم تحذو الألفاظ حذوها في الترتيب (ص٤١-٤٥) متفقًا مع ما تكشف عنه البحوث من أن الإنسان يخلق أفكارًا وتصورات، ثم يربطها معًا، ثم يبدع رموزًا معبرة عنها.

ويؤكد الجرجاني أن اللفظة تكتسب حسنها من ضمها إلى لفظة أخرى في نسق يستوجب تقديم هذا وتأخير ذلك (ص٣٩، ٤٠، ٢٧٨-٣٦٠)؛ يأتي هذا متمشيًا مع نظرية (الجشطالت) في الإدراك، حيث تدرك المنبهات -والألفاظ منبهات- على أنها تدخل في علاقات فيما بينها، كما أننا لا ندركها في مستوى واحد من الوضوح، بل تحتل بعضها بؤرة الانتباه، ويحتل معظمها هامشه، وعلى هذا يؤثر السياق في معنى اللفظ في تحديد مدى حسنه.

ويتصل بهذه النقطة رفض الجرجاني (ص٢٧٨-٣٤٢) التقليد أو الاحتذاء في الشعر، لأن أي تغيير في الأسلوب يغير في المعنى، ولكل فرد طريقته الخاصة في النظم أي الأسلوب، أو ترتيب المعاني فالألفاظ. وبمصطلحات علم النفس: لكل فرد بؤرته الانتباهية، وهامش الانتباه لديه؛ اللذان يحكمهما عوامل شخصية وموقفية تنعكس -بالضرورة- في ترتيب الفرد للمعاني والألفاظ أي النظم، وبالتالي لا يصح التقليد، وتندرج هذه النقطة تحت ما يسمى في علم النفس بالفروق الفردية Individual Differences.

ثم يؤكد الجرجاني أن البلاغة لا يستحسنها إلا من لديه القدرة على تذوقها، وهذا يتطلب علمًا وفهمًا، وهو ما لا يتم دون أن يكون الفرد مهيًا لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لها في نفسه إحساسًا بأن من شأن الفروق في النظم -أو في معاني النحو- مزية، فالحذف -مثلًا- يكون لطيفًا في موضع، وغير لطيف في آخر (ص٢٢٥-٤٢٠).

أي أن تعلم البلاغة يستوجب استعدادًا، هذا ما يؤكده علماء النفس، فبين الأفراد فروق في الاستعدادات والاهتمامات، ترجم واقعيًا في اختيار موضوعات معينة لدراستها، وأعمال معينة للاشتغال بها.

ويبدو أن الجرجاني كان باحثًا محنكًا، يتضح ذلك من نقده لطريقة البلغاء الأولين في تناول الفصاحة، فهم يصفون الكلام الحسن (بجزالة اللفظ)، و(وقوع النظم على

طريقة مخصوصة، وعلى وجه دون وجه)، ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء، أو يقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل (ص٣٥٠)، أي أن الجرجاني ينتقد في الأولين بُعْدَهم عن الوصف الإجرائي Operational، وهي نصيحة يوجهها أيضًا علماء مناهج البحث المعاصرون. فحينما أتحدث عن (الذكاء) أو (التعصب) فيجب أن أحدد ما أعنيه بلفظ (ذكاء)، ويكون هذا التحديد في شكل وصف للإجراءات التي يمكن بها التمييز بين من يتوافر فيه الذكاء، ومن لا يتصف به، أو التمييز بين المتعصب وغير المتعصب.

نقطة أخرى مهمة هي قول الجرجاني: (إن الكتابة أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح (ص٥٥). وعلى الرغم من صحة هذا القول من وجهة نظر علماء اللغة؛ إلا أن الدراسة النفسية لهذه النقطة لم تظهر بعد، فنحن بحاجة إلى دراسات تحدد الفعالية النسبية للأساليب التعبيرية المختلفة، والمتغيرات لوحدة الشعوب. وإذا عرفنا أي الأساليب أكثر تأثيرًا في استماله الناس لفكرة معينة أو لتصرف معين، سهل اتباعه، والاعتماد عليه. وقد سبقنا الغرب إلى هذا، فظهرت دراسات تقارن بين ورود أخطاء نحوية في المخاطبة (أو الرسالة الإعلامية)، وبين خلوها من هذه الأخطاء كما ظهرت بحوث أخرى تقارن بين فعالية الأسئلة التعجبية Rhetorical Questions، وبين الجمل التقريرية Statements. وتفتقد المكتبة العربية مثل هذه البحوث على الرغم من ثراء لغتنا.

وهنا يظهر التكامل بين علماء اللغة وعلماء النفس، فدور علماء اللغة هو تحديد الخصائص الأسلوبية للرسائل الاتصالية، ودور علماء النفس هو اختبار مدى الأثر الذي تحدثه إحدى هذه الخصائص بالمقارنة بالأخريات، وبهذا التكامل يمكن معرفة أي الأساليب أكثر تأثيرًا في نفوس المتلقين.

***

أغفل مؤرخو علم النفس الغربيون الإشارة إلى إسهام علماء النفس المسلمين في تطور علم النفس وتقدمه ، وما وصلوا إليه من آراء ونظريات لم يسبقهم إليها أحد من العلماء قبلهم . ويرجع ذلك الإغفال إلى جهلهم بتراث المسلمين العلمي ، وبما يحتوي عليه من آراء ومفاهيم ونظريات نفسية ، ولعل مسؤولية ذلك إنما ترجع إلى عدم اهتمام علماء النفس المحدثين بدراسة تراثنا العلمي والتعريف به . وتأتي هذه الموسوعة - ذات الأجزاء الثلاثة - لتبرز الدور المهم الذي قام به علماء النفس المسلمون في تطور علم النفس وتوضح القيمة العلمية لما قدموه من آراء حول بعض موضوعات علم النفس ، فتمكن الباحثين المعاصرين من الإحاطة بموضوعات التراث العربي الإسلامي كخطوة لتأصيل هوية عربية إسلامية لعلم النفس المعاصر . وتتناول الموسوعة بالشرح والتفصيل عرض وتكشيف ٣٠٠ كتاب ومخطوط من أمهات الكتب في التراث العربي الإسلامي والمتضمنة مفاهيم ومصطلحات ونظريات وآراء نفسية . والموسوعة تسهم في ملء ثغرة كبيرة افتقدها التأريخ الموضوعي لعلم النفس وتبرز الدور العلمي للعلماء والمفكرين العرب والمسلمين في مجال الدراسات والنظريات النفسية .

Dar-Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com